ابن عطية الكاتب
حياته ورسائله

الدكتور محمد مجيد السعيد

حياتـــه :

هـو أبو جعفـر أحمد بن جعفـر بن محمد بن عـطية القضـاعي المراكشي[1]، مع اختلاف في اسم أبيه وجده حيث ورد في الإحاطة «أحمد بن أبي جعفر بن محمـد»[2]، وفي الحلة السيراء «أحمـد بن جعفر بن عطية»[3] بإسقاط اسم جده (محمد)، ولد في مراكش سنة ٥١٧هـ[4] وأصله القـديم من قمـرلـة قـريـة بـطرطـوشـة، ثم بعـد من دانية[5]، ونسبه في قضاعة[6] نشأ في كنف أبيه الكاتب الذي اشتغل في خدمة علي بن يوسف وابنه تاشفين[7]، وتتلمذ على يده، وعُدّ من شيـوخه وكـذلك أخـذ عن طائفـة كبيرة من أهـل مـراكش[8]، ولكن المصادر أغفلت ذكر أولئك العلماء الذين أخذ عنهم ابن عطية، ولكننا يمكن أن نتصور حجم المعرفة التي بإمكان الإنسان الراغب في العلم والمعرفة الحصول عليها إذا ترعرع في مدينة زاهرة كمراكش أواخر أيام المرابطين، حيث كانت تعد آنذاك منارة من منارات العلم في العالم

الإسلامي ومحطة جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والشعراء والمفكرين، وعلى كل حال فإن أحمد بن عطية نبغ في الكتابة والإنشاء منذ فترة مبكرة أهلته لنيل حظوة كبيرة لدى خلفاء المرابطين فكتب عن علي بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٣٧هـ) وعن ابنه تاشفين (ت ٥٣٩هـ) ثم عن ابنه أبي إسحاق إبراهيم[٩] وقد أغفل ابن خلدون وتابعه في ذلك السلاوي الإشارة إلى قيام المترجم له بالكتابة لعلي بن يوسف وابنه تاشفين ولكنهما أشارا إلى أن والد المترجَم له هو الذي كان يكتب لهما[١٠]، أما أحمد بن عطية فإنه تفرّد للكتابة لأبي إسحاق إبراهيم[١١] ولازمه حينما وجهه والده تاشفين إلى مراكش خوفاً عليها من السقوط بأيدي الموحدين[١٢]. ولكننا لا نستبعد أن يكلف أحمد بن عطية الكتابة مع والده لدى بلاط علي بن يوسف ثم لدى ابنه تاشفين، ومن بعد ذلك ملازمة ولي العهد أبي إسحاق إبراهيم الذي كان صغير السن لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حينما تولى مسؤولية الدفاع عن مراكش، فهو إذن بحاجة إلى من يقف إلى جانبه ويؤازره ويستشيره من الكتاب ذوي الخبرة والرصانة والحلم.. ولهذا فإننا نرجح أن يكون المترجم له قد تولى الكتابة أولاً في بلاط الخليفة علي وابنه تاشفين (وهو في عمر يناهز العشرين) لينال لديهما الحظوة والمكانة والثقة التي ترشحه ليشغل منصب الأمين والمساعد والمرافق لولي العهد أبي إسحاق إبراهيم.

وعندما أفلت دولة اللمتونيين بمقتل آخر ملوكها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي في منتصف شوال من سنة ٥٤١هـ[١٣] وغدت مقاليد الحكم الموحدي ترفرف على خارطة الأندلس وشمال إفريقيا... هجر أحمد بن عطية مهنة الكتابة الرسمية مبتعداً عن بلاطات الخلفاء وكبار القوم، وانزوى بعيداً ودخل في غمار الناس[١٤]

«وقد أخفى نفسه في رماة العسكر وتنكر جهده وهو المعروف غير المنكر»[١٥] ولكن الظروف كانت ترسم له قدره، وتأبى أن يعيش كما يهوى فكشفت عن جوهره وأزالت غبار الغمر عنه حينما انتصر جيش الموحدين على محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثائر برباط ماسة، يوم الخميس السادس عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٤١هـ فطلب قائد الجيش «الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى كاتباً يكتب عنه بهذا الفتح إلى عبد المؤمن إذ لم يكن عنده كاتب، فعُرّف بابن عطية، فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه فأجاد وأتقن ما أراد، فقربه أبو حفص وأحسن إليه في جملته.[١٦]» وفي الإحاطة ذكر أن أبا حفص حينما استحضره وعرض عليه غرضه «تجاهل ابن عطية وظاهر بالعجز فلم يقبل -أي أبو حفص- عذره واشتد عليه، فكتب رسالة فائقة مشهورة، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتدّ إعجابه بها وأحسن إليه»[١٧]، وهكذا كانت هذه الرسالة مدخلاً وسبيلاً إلى بلاط خلفاء الموحدين، وكانت سببا في تبوئه المجد والشهرة والمكانة، فقد ذكر ابن عذاري أن الرسالة بعد وصولها إلى الخليفة «قرئت في مجلسه فاستغربها الحاضرون من الطلبة والفقهاء والكتاب والنبهاء والشعراء، واستحسنها الخليفة لما فيها من وصف الحال بغاية الإبداع وأنها أخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمع البلغاء على إبداعها غاية الإبداع، فكانت سبباً لسعده ورفعة قدره وجده، فاستكتبه عبد المؤمن إثر ذلك ثم علا قدره وذكره»[١٨]، وبعدما استُحْضر «قلّده عبد المؤمن خطّة الكتابة، وأسند إليه وزارته وفوّض إليه النظر في أموره كلها فنهض بأعباء ما فوض إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه»[١٩]، وإذا كانت براعته قد سودته وعظمت مكانته فإن ذلك كله يعود إلى رعاية البيت الموحدي له واهتمامه بصناعته وقدراته ومواهبه، ولذلك فإن ابن الأبار يجعله

«صنيعة الإيالة الحفصية ـ يعني أبا حفص عمر بن يحيى جدّ الحفصيين وأوائل أنصار ابن تومرت ـ ونشأة عنايتها الكريمة وهدايتها العتيقة، بها بهر بهاؤه، واشتهر ابتداؤه وانتهاؤه حتى ساق الأيام بل الأنام بعصاه واستوسق له أدنى الشرف وأقصاه»[٢٠]، وهو في الحقيقة يعتبر أول وزير في دولة الموحدين، والدولة كما نعرف لا تزال فتية ناشئة لم تستكمل قواعدها، ولم تُرْسِ أسسها وتقاليدها وبذلك غدا الميدان رحباً فسيحاً أمام المترجم له ليصول ويجول «فكان وزير حكمها بلا منازع كما كان مستشارها في تسيير أمور المدينة وتحريك دواليبها الإدارية»[٢١] كما يعدّ أول من جمع بين الوزارة والكتابة في عهدهم[٢٢].

ولم يدفعه موقعه هذا إلى التكبر والتعالي والانحجاب عن الناس، بل سخّر وظيفته وقربه من الخلافة لخدمة الناس وقضاء مصالحهم وفكّ ضوائقهم، «فاشتهر بأجمل السعي للناس واستمالتهم بالإحسان وعمّت صنايعه وفشا معروفه، فكان محمود السيرة، منجاب المحاولات، ناجح المساعي، سعيد المأخذ، ميسّر المآرب، وكانت وزارته زيناً للوقت، كمالاً للدولة»[٢٣] فسجلت له مواقف عديدة في نصرة المظلومين، والتوسط لهم في حلّ مشاكلهم، من ذلك إسعافه لأبي القاسم أخيل بن إدريس ووقوفه إلى جانبه عندما اتصل به بعد إطلاق سراحه من قبل المتغلب على رندة أبي الغمر بن عزون، وكتب له عن الأمر العلي إلى أبي الغمر برندة بصرف ماله والحفاوة بأهله وقضاء حوائجه وآماله، وظل في طبقته مقدماً مكرماً حتى ولي قضاء قرطبة ثم قضاء إشبيلية[٢٤]، وكان له موقف إنساني آخر مع أبي عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز الشاعر، حيث بذل جهداً شخصياً في تخليصه من معتقله فقد ذكر ابن الأبار وهو يتحدث عن ابن عبد العزيز ما نصّه «. . . وعند إشخاصه ـ أي مروان بن عبد

العزيز ـ مقبوضاً عليه إلى ميورقة سجن في بيت مظلم مُطبَق، كان لا يعرف النهار فيه من الليل، وتُرك أوقاتاً دون غذاء ولا ماء وأقام مسجوناً نحواً من عشرة أعوام وقيل اثني عشر عاماً . . . ثم إنه تخلص من معتقله بسعي أبي جعفر بن عطية الوزير في ذلك، حتى خوطب إسحاق ابن محمد بن علي بتسريحه وقد ولّي ميورقة بعد قتل أبيه محمد وأخيه عبد الله في سنة ست، بل سبع وأربعين وخمسمائة، وجنح إلى الموحدين أعزهم الله فامتثل إسحاق ذلك ووجه به إلى بجاية ومنها توجه إلى مراكش، فسعى له ابن عطية في حضور المجلس السلطاني»[٢٥] ولكن هذا الموقف الإنساني النبيل لم يقابل بمثله بل تحول أبو عبد الملك مروان إلى عدو لدود لابن عطية، ونظم فيه شعراً يوغر فيه صدر الخليفة ضده، كما سنرى.

ومَنْ في مكانة ابن عطية ومنزلته لا بد أن يتحلق حوله الشعراء والأدباء تزلفاً وتقرباً واستفادة. ولكن المصادر التي تعرضت لسيرته لم تتناول هذا الجانب أو تتعرض له بشيء من التفصيل وإنما أوردت لمحات قليلة خاطفة، لا تعبر ـ حسب اعتقادنا ـ عن الواقع، ومن تلك اللمحات ما ذكر من ملازمة الكاتب أبي بكر محمد بن نصر الأوسي له وهو القائل فيه يمدحه:

أبا جعفر نلت الذي نال جعفر ... ولا زلت بالعليا تسرّ وتُخبر
عليك لنا فضل وبرّ وأنعم ... ونحن علينا كل مدح يُجبر[٢٦]

ويبدو أن هذين البيتين قد ولّدا الكآبة والحزن والشؤم في نفس ابن عطية، لأنهما يشيران إلى نهاية جعفر بن يحيى، التي هي القتل والصلب، فكأن أبا جعفر أحسّ بأن مصيره لن يكون غير ذلك[٢٧].

ومن مدّاحيه شاعر الخلافة ابن حبوس[٢٨]، فقد قال فيه قصيدة منها هذه الأبيات:

أتحسدني في أن أعيش كأنما ... إذا فسدت حالي ستصلح حالها
أما تتقي أن يشرئب لنصرتي ... قوي إذا رام السماء ينالها
وماذا الذي يناى عليه وإنه ... لذو قدم أمّ النجوم نعالها
وزير العلى عندي من القول فضلة ... روّيتها في مَذْحِكم وارتجالها
وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى ... تميد بي الدنيا وأنتم جبالها[٢٩]

ولم يتوفر لنا غير هذين النصين في مديحه، وهما ـ كما قلنا ـ لا يتناسبان والمكانة التي كان يشغلها المترجم له، ولعلي أرجع سبب اختفاء نصوص مدحية أخرى قيلت فيه إلى النهاية الحزينة المؤلمة التي اختتمت بها حياته.

على كل حال فإن ابن عطية لم يتحدد دوره في عهد الموحدين بوظيفة الكتابة والوزارة بل كلف بمهمّات أخرى كبيرة وخطيرة، فقد شارك في فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ[٣٠] وبخطه وأسلوبه وصف فتحها برسالة «أبدع فيها غاية الإبداع، وفي شرح هذا الفتح أبهج القلوب والأسماع، وبعث بها إلى سائر الأصقاع»[٣١].

كما أشرف على القضاء على فتنة أخوي المهدي بن تومرت حينما ثارا في فاس ودخلا مراكش فقتلا عاملها عمر بن تفراكين، ولقد أبلى ابن عطية آنذاك بلاء حسنا حتى تمكن من إخماد الثورة وتكبيل زعيميها.. ومهد الأمور بعد ذلك لوصول الخليفة الموحدي إلى مراكش[٣٢].

وكانت له مشاركات بارزات، ودور فاعل وخطير في الحملات التي قام بها جيش الموحدين في الأندلس، فعلى يديه تمّ فتح المرية

واستنزال النصارى المتحصنين فيها بالأمان صلحاً على العهد، بحسن محاولته[٣٣]، بعد أن حوصرت لفترة طويلة من قبل الشيخ أبي حفص، ثم بعد ذلك، وبأمر من الخليفة عبد المؤمن لازم أبا يعقوب بن عبد المؤمن بعد تقديمه على إشبيلية، فتوجه معه ـ بعد انتهاء فتنة المرية ـ نحو إشبيلية لمنازلة الثائر بها علي الوهيبي بداية عام ٥٥٢هـ[٣٤]، وحينما توجه أبو سعيد بن عبد المؤمن لمنازلة النصارى في غرناطة وجه إليه الخليفة عبد المؤمن «الكبير أبا جعفر بن عطية صحبة السيد أبي يعقوب ابنه، فلحق به واتصل الحصار شهوراً سبعة، وبُذل الأمنُ لمن كان بها وعادت إلى ملكة الإسلام، وانصرف الوزير أبو جعفر صحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية»[٣٥].

وهكذا نجد أن دور ابن عطية السياسي قد توسع فغدا يشارك في الأعمال الحربية والعسكرية مشاركة فاعلة ومؤثرة، فكان مقدماً وذا مكانة يحسب حسابها، فيصفه ابن الخطيب، في النص السابق، بلقب «الكبير» وفي حصار المرية يكون المفاوض باسم الدولة لحل الصعوبات العويصة مع المتحصنين من النصارى.

ولكن لم تستمرّ هذه المكانة وتلك المنزلة، فقد عدا عليه الدّهر وقلب له ظهر المجن، وبدلت الأقدار سعادته شقاء، ورخاءه محنة ونكدا، «فطولب عند الخليفة عبد المؤمن فأمضى عليه حكم ما رآه من الرأي في سلطانه، بحيث لم يجب استغاثته إلا عواء الذئاب، أو صدى تتسعر عليه نار الاكتئاب فرويت الأرض من دمه»[٣٦]، ومن متابعة المصادر التي تعرضت لنهاية ابن عطية يقف القارىء على جملة أسباب قد تكون أو يكون بعضها دافعاً لتبدل الخليفة وتغيره على وزيره وكاتبه، ومعاقبته بمثل تلك القسوة التي عوقب بها. وتلك العوامل والأسباب التي دفعت إلى نكبة ابن عطية هي:

١ ـ إفشاؤه سرّاً أفضى إليه به الخليفة[٣٧]، وكان ذلك السرّ يتعلق بحياة يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن الصحراوية وهو أخو زوجته. مما أغضب الخليفة فأمر بتقييد يحيى وسجنه إلى أن مات، وأمر بقتل الثاني على الطريقة التي سنتعرض لها.

٢ ـ تقريبه للمرابطين، وتعاطفه معهم، واتهامه باصطناع العدد الكثير منهم وانتشالهم من خمولهم[٣٨]. ولم يكتف بذلك بل تزوج ابنة أحد زعمائهم، فقد ذكر المراكشي في المعجب أن ابن عطية كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية، وهي أخت يحيى بن أبي بكر فارس المرابطين المشهور عندهم والمعروف ببلائه ومقاومته لحركة الموحدين في تلمسان وفي فاس وغيرهما[٣٩].

٣ ـ كثرة الوشاة والحساد، فقد مرّ بنا ما وصل إليه ابن عطية من مكانة لدى الخليفة ومن سلطات واسعة لا حدود لها تجمع بين الكتابة والوزارة، ومن يكون بهذه المنزلة لا يخلو من الحساد والمغرضين والطامعين، ولقد خلا الجو لأولئك الأعداء عندما توجه ابن عطية إلى الأندلس في مهمة رسمية دامت شهوراً، «فوجدوا السبيل إلى التدبير عليه، والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة، فاستوزر عبد المؤمن بن عبد السلام بن محمد الكومي، وانبرى ـ أي عبد السلام ـ لمطالبة ابن عطية، وجدّ في التماس عوراته، وتشنيع سقطاته وأغرى به صنايعه، وشحن عليه حاشيته، فبروا وراشوا وانقلبوا»[٤٠]، ومما زاد في الطين بلة أبيات نظمها مروان بن عبد العزيز «طليق ابن عطية، ومسترَق اصطناعه»[٤١] كما يقول عنه ابن الخطيب، وهو ممن أحسن

إليهم ابن عطية وخلّصه من سجنه في ميورقة، وكان هذا الشعر الذي نظمه فيه وألقاه في مجلس الخليفة يحرض فيه على قتله والإيقاع به[٤٢] من أقوى أسباب نكبته، ومن أهم دوافع قتله وفنائه[٤٣] وهذه الأبيات هي[٤٤]:

قل للإمام أدام الله مدته ... قولاً تبين لذي لب حقائقه
إن الزراجين قوم قد وترتهم ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل ... لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نورهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه
الله يعلم أني ناصح لكم ... والحق أبلج لا تخفى طرائقه
هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادقه

وفي الأبيات تأكيد لما كان يتهم به ابن عطية من ميل إلى اللمتونيين وتعاطف معهم.

هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة دفعت الأمور لغير صالحه، وأوغرت صدر الخليفة عليه، وأثارت غضبه، فتغير حبه كرها، ورفعته انحطاطاً وسفلى.

«فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد... حاسر العمامة»[٤٥]، ثم سجن هو وأخوه أبو عقيل عطية، وبعد معاناة وعذابات مريرات نفذ الأمر بقتلهما، «فأخرجا من سجنهما وحملا إلى جبل (درن) وقتلا بموضع تاجموت قرب الملّاحة، وذلك في التاسع والعشرين لصفر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة»[٤٦]، وهكذا انتهت حياة هذا الكاتب الأديب الوزير نهاية مؤلمة قاسية، وإذا كنا نتلمس أسباب قتله فإنه يصعب معرفة دوافع قتل أخيه عطية سوى رابطة الأخوة التي تجمع بين الاثنين. وفي فترة الاعتقال صدرت عن ابن عطية لطايف الأدب من

نظم ونثر ولكن سيف القدر أمضى فلم تنجع ولم تدفع، ومن تلك المأثورات التي نفثت عنه أيام محنته أبيات نونية يقول في بعضها:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البثّ والحزن[٤٧]
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... وعطفة منكم أنجى لي من السفن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون منّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... تلك الحياتين من نفس ومن بَدَن
وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابغة ... والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن

وفي النثر كتب رسالته الرقيقة المؤثرة في الاستعطاف، التي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته الجدّية، وسلك مسلكه، وقد كتبها عندما اصطحبهما أمير المؤمنين ـ هو وأخوه ـ مكبلين في حال ثقاف لزيارة قبر المهدي بن تومرت وفيها يقول «تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح في الفلك لنوح، وبَريت لقرار ثمود نِبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا... ثم أتيت حضرة المعلوم لائذا، وبقبر الإمام المهدي عائذا، لقد آن لمقالتي أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أني مقترف وبالذنب معترف»[٤٨].

وهذه الرسالة على ما فيها من توسل، ومن مغالاة ومن ترجّ وتذلل لم ترقق قلب أمير المؤمنين ولم تخفف من العقاب، فكانت صرخة في واد، وصوتاً محشرجاً لم يجد أذناً تصغي ولا قلباً يعي، فلم ينل أمنيته ولم يحقق غايته.

وبعد مقتله قيل إن عبد المؤمن ندم على قتله وبكى عليه بالدموع[٤٩]، وقال متحسراً «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه»[٥٠].

هذه هي حياة ابن عطية، بل هذه صفحات موجزة مما سجلته كتب التراث عن هذا الأديب الناثر، وهي في الحق تمثل صفحة من حياة دولة الموحدين السياسية وما كانت تعج به قصورهم من حسد وفتن وما تحاك بها من مؤامرات تطيح برؤوس وأعناق.

أما حياته في جانبها الاجتماعي والعائلي فلا يعرف منها سوى نتف قليلة، وكل الذي نعرفه أن والده قد قتل على يدي عبد المؤمن[٥١] وأنه كان متزوجاً من بنت أحد زعماء المرابطين، المدعوة «بنت الصحراوية»[٥٢] وأن لديه أبناءً نستدل عليهم من قوله في أحد أبيات نونيته السابقة:

وصبية كفراخ الورق من صغر لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن

وهي إشارة إلى مجموعة عيال، والمقري يذكر أن هذه القصيدة كان قد بعثها ابن عطية مع ابن له صغير إلى الخليفة أمير المؤمنين[٥٣]، ويذكر المراكشي في المعجب أن لأبي جعفر أحمد بن عطية حفيداً يدعى «أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر» وكان فقيهاً متفنناً[٥٤]، وعلى كل حال فإننا لا نملك أخباراً أو تفاصيل عن حياته الخاصة سوى هذه النتف التي لا تغني ولا تبلّ. وهكذا انتهت حياة ابن عطية وهو ما يزال في ذروة عطائه ونضوجه وانطوت صفحته على عمر لم يتجاوز السادسة والثلاثين فقد كان مولده سنة ٥١٧هـ. أما أخوه عطية فقد قتل وعمره ٢٣ سنة[٥٥].

وفي خاتمة حياة هذا الرجل ينقل ابن عذاري المراكشي عن الرواة الثقات «أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء

المتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته ونصحه وخدمته وسلوكه طرق المكارم واجتنابه للمحارم والتذاذه بقضاء المسائل وتلطفه في توصيل الرغباء من مضطر وسائل»[٥٦].

أما المقري فيشبه نهايته ومصيره بنهاية ابن الخطيب ومصيره حيث يقول عن ابن عطية «وبالجملة فالرجل كان نسيج وحده، رحمه الله تعالى وسامحه، وقضية لسان الدين تشبه قضيته، وكلاهما قد ذاق من الذلّ بعد العزّ غصته، وبدل الدهر نصيبه من الوزارة وحضّته، بعد أن اقتعد ذِروة الأمر ومِنصّته»[٥٧].

أدبـــــه:

دخل أبو جعفر أحمد بن عطية ديوان الأدباء بفضل رسائله النثرية التي كتبها عن مخدومه عبد المؤمن الموحدي منذ أن فتحت أمامه أبواب القصر الخلافي في مراكش، ولم يعرف عنه غير النثر من نتاج أدبي سوى قصيدته النونية في استعطاف الخليفة عندما غضب عليه وأودعه السجن، وهي القصيدة التي كانت صرخة في واد أو نفخة في رماد ـ كما يقولون ـ فلم تحقق غرضها، ولم تُنجِ صاحبها من القدر المحتوم، والأجل المكتوب، وقد سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من صفحات[٥٨]، كما أوثر عنه بيتان رقيقان من الشعر قالهما في السجن وهما:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا ... فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى[٥٩]

وها أنا في ليل من السّخط حائر ... ولا أهتدي حتى أرى للرضى صُبحا

والشعر وليد المحن، تفجّره الأزمات والمواقف الصعبة، وأديبنا ابن عطية الذي عانى الكتابة فترة طويلة من الزمن يدرك أن للشعر خصوصية وتأثيراً في النفوس قد لا يحققهما النثر مهما رقّ ولان

وعذب، فامتطى الشعر على ندرة امتطائه وقلة ممارسته إياه، فأبدى تمكنا من صهوته وقدرة على معالجته وتطويعه لأداء غرضه، ولكن النونية هي بيضة الديك التي لم تتكرر، فقد عاجله الحين، كما سبق توضيحه.

وعلى كل حال فإننا لن نقف عند أبياته الشعرية، ولا نتعرض لها في دراستنا لأدبه، وإنما سنفصل القول في نثره وما كتبه من رسائل ذاتية أو ديوانية للتعرف إلى مكانته الأدبية وقدراته في هذا المجال الذي هو، في الحقيقة، ميدانه الرئيس وحلبته التي برّز فيها، ونال بسببه حظوة كبيرة ومكانة رفيعة استحقهما عن جدارة.

رسائلـــه:

توفرت لدينا مجموعة من رسائله ـ هي ليست كل نتاجه كما هو واضح من النصوص ـ ولكنها تمثل قيمة أدبية يمكن الركون إليها في دراسة نثر ابن عطية وتقويم مكانته الأدبية من خلالها، وعند الرجوع إلى تلك الرسائل يتضح أنها جميعاً من المراسلات الديوانية وليس فيها غير قطعة واحدة في غرض الاستعطاف، كتبت إلى السلطان ولم تصدر عنه، كما هو الحال في المراسلات الأخرى، فهي تتعلق بسبب بالمكاتبات السلطانية وإن لم تندرج تحت لوائها، ومن باب التجوز أن نتعرض لها ونقف عندها لما تستحقه من عناية ولما تقوم عليه من عناصر عاطفية وإنسانية قد لا تتوافر في نتاجه الرسمي ـ الذي سنفصل القول فيه فيما بعد.

رسالته الاستعطافية:

من خلال نظرة فاحصة في رسالته الاستعطافية التي كانت بحق وليدة ظرف ألمّ به، ومحنة أصابته، والتي وجهها إلى وليّه ومخدومه

أميـر المؤمنين عبـد المؤمن بن علي يلتمس فيهـا العفـو والغفـران ويستعطف فؤاده، ويستدرّ صفحه، والنص قطعة من رسالـة لم تصل إلينا كاملة فهي مبتورة المقدمة خالية من اسم من وجهت إليه عاطلة من الرسوم المعروفة والمعهودة على عهدهم في كتابة الرسائـل، ولكننا نعرف من حشو الرسالة أنها موجهة إلى الخليفة عبد المؤمن وأنها كتبت إبّان محنة ابن عطية وفي ذروة غضب الخليفة عليه، وأنها اقترنت بزيارة أميـر المؤمنين قبر الإمـام المهدي بن تـومـرت، وكـان الخليفـة قـد استصحبه ـ وأخاه أبا عقيل عطية ـ معه منكوبين بحـال ثقاف(٦٠). ولكن هذه الرسـالة، بما أنها وليدة المعاناة وحصيلة التجربة الشخصية، تمتاز بخاصية وجدانية ذاتية، تعبر عن نفسية أزعجها شبح الموت، وهزهز من رصانتها وقوتها هزّات القيود وأصوات الأصفاد وهي تختضّ مع كل حركة أو نقلة يقوم بها ـ هو وأخوه ـ في مكوثهما أو تنقلهما. فلا غرابة أن نلمس مثل هذه المغالاة في رسالته، وهذا التذلل في طلب العفو واستـدرار الشفقة، وهـذا الحشد من ذكـر جسام الـذنوب التي سجلهـا فكأنـه يقول: إنه لو اقترف كبار الجرائم وجسام الذنوب كالتي ارتكبها عصاة التاريخ وعتاته ومتمردوه فكانت وصمات سوداً على جبين مرتكبيها، لم تمحها الأيام ولا الدهور ثم كان له أن يلجـأ إلى قبر الإمـام المعلوم المهدي المعصوم لنال الشفاعة والمغفرة والعفو. فكيف به، وهو لم يقترف ذنباً ولا جرماً.

وعلى كل حال، فإن الرسالة أو المتبقي منهـا، تنمّ عن ثقافـة واسعة كان يمتلكها أديبنا، تسترفد التاريخ والأديان بشكل خاص في تـدعيم غرضـه وتعزيـز ما يهـدف إليه من تـوصل إلى نتـائج هي في محصلتها انتزاع العفـو والغفران من الخليفـة. ولا تغرب عن بـالنا، ونحن نقرأ سطوراً من الرسالة، رسالة ابن زيدون الجدية التي كتبها،

هو الآخر في السجن موجهة إلى أبي الحزم بن جهور(٦١)، بل إن الرسالتين تلتقيان في أكثر من فكرة، ففي كلتيهما نجد فكرة تمرد إبليس وتكبره عن السجود لآدم، وعدم طاعة أمر الله في ذلك تقف على رأس الكبائر، يقول ابن زيدون: «وما أراني لو أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت»(٦٢) والفكرة نفسها تتردد في قول ابن عطية «تالله لو أحاطت بي كل خطيئة.. حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود»(٦٣)، وبعد نص ابن زيدون السابق مباشرة يأتي تمرد ابن نوح على أبيه وامتناعه عن الركوب معه في السفينة، وهو ذنب كبير آخر اقترفه إنسان بحق والده، وجحود ابن لأب كان يدعوه إلى الخير والنجاة فيقول ابن زيدون «وقال لي نوح: «اركب معنا» فقلت «سآوي إلى جبل يعصمني من الماء» وفي نص ابن عطية يأتي ذكر نوح هو الآخر مباشرة بعد ذكر عصيان إبليس لأمر الله في السجود لآدم. ولكن ابن عطية لم يذكر جحود ابن نوح وعصيانه لوالده وإنما ذكر ما هو أعظم وأكبر من ذلك وهو ذنب من ينكر إيحاء الله تعالى لنوح ببناء الفلك وهذا بحد ذاته كفر جسيم يقول ابن عطية «وقلت -: إن الله تعالى لم يُوحِ في الفلك لنوح».

وجاء في الرسالة الجدية قوله «.. وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة»، والفكرة نفسها تأخذ ثوباً آخر في قول ابن عطيّة «.. وقلت: إنّ بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة».

وعندما يقول ابن زيدون «... وضحيتُ بالأشمط الذي عنوان السجود به» ويقصد بالأشمط عثمان بن عفّان.. وقصة مقتله، فإن ابن عطية يكررها مستخدماً اللفظ نفسه (الأشمط) حيث يقول في رسالته «... واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة...» وفي رسالة ابن زيدون إشارة إلى قتل علي بن أبي طالب بيد عبد الرحمن بن

ملجم، فيأخذ ابن عطية الحدث نفسه فيشير إليه بقوله «وغادرت الوجه من الهامة خضيباً»، والرسالتان تلتقيان في الجو العام الذي يسودهما وطريقة البناء فهما تعتمدان أصلاً على مقدمات تحشد الذنوب وكبائر الأعمال لتصل بعد ذلك إلى أن كاتب الرسالة الذي هو ابن زيدون في الأولى ثم ابن عطية في الثانية لو اقترف هذه الذنوب كلها أو بعضها ثم طلب العفو والمغفرة من سيده لنالهما ولحصل عليهما.

فابن عطية في رسالته كان يحذو حذو ابن زيدون وعلى نسقه يبني حتى «ليخيل إلى الأديب ـ من أول وهلة ـ أنها قطعة منها أو خلاصة عنها»(٦٤)، وهو لا يبعد أن يكون مطلعاً عليها بل حافظاً لها متأثراً بها، ولكن ابن عطية كان في رسالته أكثر ليونة وحسن جرس وسجع.

وقبل أن ننتهي من هذه القطعة النثرية نود أن نشير إلى أن بعض المصادر أوردتها مستقلة عن الشعر وبعضها الآخر جاء بها مسبوقة بأبياته النونية في الاستعطاف(٦٥)، التي سبق أن أشرنا إليها، والنصان ـ النثر والشعر ـ في كل الأحوال يعالجان موضوعاً واحداً وغرضاً واحداً ويهدفان إلى مرمى واحد، وقد صدرا عن فؤاد مكلوم ورجل مظلوم يمرّ في ظرف قاهر قاس. فالنصان إن لم يكونا رسالة واحدة فهما بحكم النص الواحد حيث يكمل أحدهما الآخر.

رسائله الديوانية:

يعد كتاب «مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية» الذي اعتنى بإصداره الأستاذ إ. ليفي بروفنسال من أهم المصادر وأغناها في النثر الديواني الموحدي حيث ضمّ الكتاب سبعاً وثلاثين رسالة ديوانية، ولكنه يعدّ أكثر أهمية فيما يتعلق بنثر أديبنا ابن عطية فقد اشتمل الكتاب على ست عشرة رسالة نسبت إلى المترجَم له.

ومن خلال تدقيق تلك المجموعة من الرسائل يتضح للمدقق أن بعض تلك الرسائل التي نسبت إليه ليست في الحقيقة له، فقد جاءت الرسالة العاشرة حسب ترتيب الناشر ممهّدا لها بما نصه «لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية»[٦٦] وهذا القول يشعر بالشك في نسبتها إلى كاتبنا، وقد وردت الرسالة نفسها كاملة في كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي دون ذكر أو إشارة إلى كاتبها[٦٧]، ولكننا نرجح كونها له وذلك لاعتبارات عديدة منها أنها كتبت بتاريخ السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[٦٨]، ولم يكن في هذا التاريخ كاتب للخليفة عبد المؤمن سوى صاحبنا، بل كان في هذه الفترة يعيش أوج عزّه، وزهو مكانته، ثم إن الرسالة من حيث الرسوم والتدرج الشكلي في مقدمتها وحشوها وخاتمتها تتفق مع رسائله الأخرى، وكذلك الأسلوب والصياغة وبناء العبارة كلها تشير إلى طريقته وتقترب من قلمه وصياغته.

ومثلها جاءت الرسالة الحادية عشرة مجهولة النسبة، لأنها جاءت مبتورة الرأس فلم يعرف كاتبها ولا اسم المرسل ولا تاريخ كتابتها، ولكن السياق يظهر أنها كتبت عن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى جهة ما من بلاد الموحدين يخبرهم فيها بثورة أخوي المهدي بمراكش[٦٩]، وما حلّ بهما وبأنصارهما من عقاب. وقد أشارت الرسالة إلى أن الموحدين قد قبضوا على الشقيين المذكورين، ولكونهما يتصلان بالإمام المهدي المعصوم برحم فقد حكم عليهما بالبقاء الإجباري في مدينة مراكش ثم بعدها سرّحا «واختير لهما سكنى فاس ـ حرسها الله ـ بجميع أهليهما وبنيهما لينزلوا بقرارتها خير منزل»[٧٠] ولكنهما ما لبثا ـ حينما شعرا أن الفرصة مواتية لهما ـ أن ثارا وأيدهما خلق من فاس ثم توجها مع مؤازريهما إلى مراكش فقتلا عاملها

الشيخ أبا حفص عمر بن تفراجين[٧١]، ولكن أمرهما لم يطل فقد تمكن الموحدون من القضاء على ثورتهما وحزّ رأسيهما ورؤوس الفتنة من أنصارهما[٧٢]. وعند تتبع أخبار ثورة أخوي المهدي في كتاب البيان المغرب نجد أن تفاصيل خروجهما عن طاعة عبد المؤمن مذكورة، كما روتها الرسالة وقد أشار المراكشي إلى أن الخليفة وجه ابن عطية إلى الثائرين فكان له دور متميز ومؤثر في القضاء على الثورة المذكورة[٧٣]، وكان ذلك في ذي القعدة عام ثمانية وأربعين وخمسمائة[٧٤]، وبعد القضاء على الناكثين ودخول الخليفة مراكش أمر الوزير الكاتب أبا جعفر بن عطية بالكتب إلى جميع البلدان، فكتب بما لا يجال معه من الفصاحة والبلاغة في ميدان[٧٥].

وتأسيساً على ما سبق من أحداث تاريخية، ومن توافق بين ما جاء في الرسالة وما جاء في البيان المغرب، وفي غيره من المصادر ومما صرح به المراكشي من أن الخليفة أمر أديبنا بالكتابة في الحدث المذكور إلى البلدان يتحقق لدينا أن الرسالة المذكورة هي من إنشاء ابن عطية.

ووردت الرسالة التاسعة عشرة منسوبة إليه، ولكن تاريخ كتابتها يشير إلى أنها كتبت بعد وفاة ابن عطية حيث ذكر أن تاريخها في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة[٧٦]، وهي وإن كانت تحذو حذو رسائله الأخرى من حيث الشكل والرسم فإنّ الأحداث التي تتحدث عنها الرسالة تؤيد أنها كتبت بعد وفاته، فقد ورد ذكر لحصار المهدية ـ ودعاء الكاتب بأن ييسر الله فتح هذه المدينة، حيث قال «فإننا كتبناه إليكم... بظاهر المهدية ـ فتحها الله»[٧٧] أي أنها لا تزال قيد الحصار.

وكذلك أشارت الرسالة إلى أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي باختطاط مدينة بجبل طارق[٧٨]، وفي ختامها يسير إلى فتح (قفصة)

ومخاطبة عرب قابس[٧٩]، وعند الرجوع إلى هذه الأحداث يتأكد لدينا أنها كتبت في التاريخ الذي ذكرته الرسالة في ذيلها، فقد ورد في كتاب المن بالإمامة أن الخليفة عبد المؤمن قد بعث بكتابين إلى إشبيلية مبشرين بالفتوح أحدهما مؤرخ في الثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين وخمسمائة وقد كتب بظاهر المهدية[٨٠]، وأعتقد أن هذه الرسالة التي لم يحدد ابن صاحب الصلاة نصها هي رسالة أخرى بعثها الخليفة من ظاهر المهدية أثناء حصاره لهذه المدينة التي تمّ فتحها فيما بعد ـ وكما ورد في الخطاب الثاني الموجه إلى إشبيلية أيضاً ـ بتاريخ عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة[٨١]، كما أن ابن صاحب الصلاة يشير إلى صدور كتاب من الخليفة إلى إشبيلية أيضاً بتاريخ ربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسمائة يتضمن الإشارة إلى فتح قفصة[٨٢]. ومخاطبة عرب قابس بني سليم بالتوحيد وطلب الأمان[٨٣]. ولا ننسى أن جواز الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ونزوله جبل طارق بعد فتح المهدية كان في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة[٨٤].

أي أن جوازه كان بعد أن أنجز السيد الأعلى أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن ما أمره الخليفة به من بناء مدينة جبل طارق[٨٥]، وجميع هذه الأحداث تؤكد أن الرسالة المذكورة هي ليست لابن عطية وإنما لغيره من الكتاب ويرجح الدكتور التازي «أن منشئها أحد شخصين إما ابن المرخي أو القالمي فقد كانا معا منشئين في هذه الفترة[٨٦]، ولا يخلو ما في تاريخ تدوين الرسالة ومكان صدورها وما تذكره المصادر من تواريخ لوقوع الأحداث التي وردت فيها من اختلافات واختلاطات تحتاج إلى وقفة لتخريجها وتوضيحها، ولا نرى أن المجال هنا يسمح بمثل ذلك[٨٧].

ونسبت الرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب الكتاب إلى ابن عطية وقد وصفها بروفنسال بأنها رسالة الفصول[٨٨]، والذي أثار شك نسبتها إليه أنها مؤرخة في ٣ ربيع الأول عام ٥٥٦هـ أي بعد وفاة ابن عطية بسنوات والرسالة في «إقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات»[٨٩]، وقد فصلت القول وأطالت في معالجة موضوعها الإصلاحي في «إحياء معالم السنة وإحكام أمراسها»[٩٠]، وليس في مضمونها ما يستدل على أنها له، لأن موضوعها عام وغير خاص، فالرسائل التي تناولت مثل هذه القضايا الدينية العامة كثيرة في فترة الموحدين، وفي كتاب نظم الجمان رسالة سميت أيضاً برسالة «الفصول» وهي منسوبة إلى ابن عطية ومضمونها يتناول الإصلاح والتوجيه، وأنها «جامعة لأنواع من الأوامر، الباقية فخراً لمن تفاخر، خلدت من مآثره ـ يعني عبد المؤمن ـ السَّنية، وأوامره السنية، ووصاياه الحكيمة، وآدابه العلمية، ما يقر معه بفضله كل سامع لها وآثر»[٩١] فالرسالتان تتشابهان من حيث المضمون والموضوع، ولكننا لا نؤيد نسبة الاثنتين إلى ابن عطية، وترجيحنا أن الرسالة الثانية هي له فقد جاء في حشوها أن تاريخ كتابتها هو السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[٩٢] أي أنها كتبت في حياة ابن عطية كما أن تسميتها برسالة الفصول جاءت من نصّ في حشوها «.. فأمرُنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل»[٩٣]، وقد نبه محقق كتاب نظم الجمان[٩٤] إلى أن هذه الرسالة هي المقصودة بما ذكره عبد المؤمن في رسالته إلى طلبة صنهاجة تاسغرت عندما قال «وتصلكم طي كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين ـ وفقهم الله ـ فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله ويعضد،

ورأينا قضاءها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون أثره قريباً»[٩٥]، ويفهم من هذا النص أن رسالة الفصول كانت إعماماً من السلطة إلى جميع الجهات والأصقاع التي تخضع للموحدين ويؤكد هذا الفهم نص آخر ورد في البيان المغرب يقول «في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أمر أبو محمد عبد المؤمن بالكتب للبلدان لما استقر بمراكش مريحاً للنظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين وكان رفع له أن المظالم قد ظهرت والقبالات* في الأسواق اشتهرت فكتب أبو جعفر بخطه عنه كتاباً إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف والنهي عن المنكر وعن سفك الدماء، . . . ووجه منه نسخا كثيرة إلى بلاد الأندلس والعدوة»[٩٦] وهو بذلك يعني - بلا شك - رسالة الفصول آنفة الذكر.

أما الرسالة التي أوردها بروفنسال في مجموعه وسماها وهماً برسالة الفصول فهي من النماذج التي حاكت أسلوب ابن عطية وطريقته وأفكاره أيضاً وسارت على منواله، ولكنها ليست له لما ورد في تاريخ كتابتها من صراحة ووضوح تشيران إلى أنها كتبت بعد وفاته. كما أن تسميتها برسالة الفصول وهم لا أساس له من الصحة.

ولقد غدت رسالة الفصول لابن عطية التي أشرنا إليها سابقاً، نموذجاً يحاكى من قبل الكتاب وخاصة حينما يكلفون بتدوين مراسلات في الموضوع ذاته، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن النماذج التي جرت على مجراها - غير ما سبق ذكره - رسالة كتبها أبو الحسن بن عياش عن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في الثالث من شهر رمضان سنة ٥٦١ هـ[٩٧].

وتأسيساً على ما سبق يكون لابن عطية أربع عشرة رسالة بعد استبعاد رسالتين له هما الرسالة التاسعة عشرة والرسالة الثالثة والعشرون من ترتيب بروفنسال.

وكتاب «مجموع رسائل موحدية» يعدّ بحق المصدر الأهم لنثر ابن عطية الديواني، بل هو المصدر الوحيد الذي يضم هذا العدد من رسائله. وليس فيما عداه سوى رسالة الفصول في كتاب نظم الجمان. أما الرسالة الواردة في كتاب «صبح الأعشى» وهي غير منسوبة إلى أحد فإنها نص الرسالة العاشرة ضمن كتاب مجموع رسائل موحدية التي رجحنا نسبتها إلى كاتبنا(٩٨).

ومن المؤسف أننا لم نجد في المصادر الأخرى التي تعرضت لابن عطية نثراً سوى رسالته الاستعطافية التي وجهها إلى عبد المؤمن ابن علي(٩٩)، ورسالته الماسية التي كتبها عن أبي حفص في موقعة وادي ماسة، والتي أورثته المجد(١٠٠)، أما عدا ذلك فإن مصادر أخرى كانت تكتفي بوصف ابن عطية بالأدب والكتابة وتغفل تثبيت أي شيء من نثره.

وسنبقى في أمل انجلاء بعض النصوص من كتاباته ورسائله القيمة من خلال اكتشاف ونشر مخطوطات تضم شيئاً من تراثه الثرّ والكثير، الذي يمثل فترة مهمة من تاريخ الموحدين.

رسوم رسائلـــه:

لما كان تكوين ابن عطية الثقافي والعلمي قد تمّ في العصر المرابطي فهو ـ بلا شك ـ متأثر بطريقتهم في الكتابة، ولكنه ومن خلال تحمله مسؤولية الكاتب الأول للخليفة لم يكتف بما تعلمه في العصر السابق، بل بدرت منه أساليب ورسوم جديدة متطورة عما هو عليه الحال في الرسائل الديوانية المرابطية، ولقد كان لمكاتباته وصيغ بناء رسائله تأثير كبير على جيل الكتاب الرسميين من بعده، حتى غدت سناً يحذو حذوها الآخرون، مما سنتعرض له فيما بعد. وعلى كل حال

فإن الرسائل الديوانية ـ وكما هو معروف ـ كانت تتقيد بأساليب ورسوم معروفة تكاد أن تكون مقننة ثابتة، فهم ليس كما يذكر أحد الباحثين من أن الأندلسيين لم يحتفلوا بمطالع الرسائل وخواتيمها مثل احتفال المشارقة بها[١٠١] وقد أوردنا منها ستة أنماط في بحثنا عن المكاتبات الرسمية في عهد الموحدين، وثمانية أنماط للرسائل الموجهة من الأمراء والحكام والقضاة إلى الخلفاء[١٠٢]، وعند العودة إلى رسائل ابن عطية نجد أنها كانت كلها ـ سوى الرسالة الاستعطافية والماسية ـ من الرسائل الديوانية الرسمية التي صدرت من مركز الخلافة وبتوجيه من الخليفة نفسه، وعند التأمل في الرسم الذي اتبعه ابن عطية في بناء رسائله نلمس أنه كان يعتمد صيغة واحدة في إطارها العام مع اختلاف بسيط يحدث في ترتيب عناصرها ورسومها وهذه الصيغة تقوم على الشكل التالي[١٠٣]:

ـ أن تبتدىء الرسالة بالبسملة والصلاة على النبي محمد ﷺ، ثم يذكر لقب المكتوب عنه مقروناً بالدعاء له بما يليق بمقامه، وتأتي بعد ذلك بذكر اسم المكتوب إليه أو صفته وقد تشير إلى مكان الإقامة، ثم تأتي بما يناسبه من دعاء، وتعقبه بتحية الإسلام ثم بالبعدية[١٠٤]، فالحمد لله والصلاة على نبيه والسلام عليه، ثم الترضية على الإمام المعصوم المهدي المعلوم، ثم تنتقل بعدها إلى فقرة جديدة يبدأها الكاتب بقوله «وكتابنا هذا» أو ما يشبهه، مشفوعاً بالدعاء بمعنى الكتابة، ويذكر بعدها اسم الحضرة التي صدرت الرسالة عنه، ولا ينسى الدعاء للحضرة بما يناسب ويليق... وقد يسجل تاريخ كتابة الرسالة قبل أن يلج الموضوع الأساس للرسالة التي تختم عادة بتحية الإسلام. وخير مثال على هذه الصيغة رسالته المسماة برسالة الفصول التي جاء نصها كاملاً في كتاب نظم الجمان[١٠٥]، حيث جاءت

مقدمتها على الصورة التالية :

«بعد البسملة والصلاة :

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره، وأمده بمعونته، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد.

فالحمد لله، وهو اللطيف الكريم.. وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم والعرضا عنْ الإمام المعصوم، المهدي المعلوم الذي بعثه رحمة للمؤمنين، . . . وكتابنا هذا . وكتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه ـ من الحضرة العلية بتينمّل ـ حرسها الله تعالى ـ في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وقد وصَلْنا ـ والحمد لله ـ وجناح الرحمة مخفوض . . . إلخ»(١٠٦).

ومن الملاحظ أن هذه الرسالة هي الوحيدة التي ذكر ابن القطان أنها مبتدئة بالبسملة والصلاة على النبي أما بقية رسائله الديوانية فقد ابتدأت بذكر لقب المكتوب عنه الذي هو أمير المؤمنين.

وقد أشار القلقشندي في كتابه صبح الأعشى إلى هذا اللون من المراسلات وأوجزه بقوله «كان الرسم فيها أن يقال «من أمير المؤمنين فلان» ويدعى له بما يناسبه «إلى فلان. . .» ويدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي محمد ﷺ والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود ويختم بالسلام، والخطاب فيها بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه»(١٠٧).

وإذا كانت الرسالة السابقة موجهة إلى الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان دون تخصيص فإن مكاتبات أخرى قد ورد اسم المكتوب إليه صراحة، كما في قوله من رسالة «من أمير المؤمنين . . . إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج . . . »[١٠٨].

أما تاريخ كتابة الرسالة فإننا نلاحظ أن ابن عطية كان يغفل ذلك في بعض مكاتباته[١٠٩]، ولكنه كان يورد التاريخ في حشو الرسالة في بعضها الآخر ـ وكما هو ملاحظ في رسالة الفصول التي سبق الاستشهاد بها أو أن يأتي به في ذيل الرسالة[١١٠] والطريقة الأخيرة ظلت قائمة متبعة فترة طويلة بعده.

ويبدو أن ابن عطية قد استفاد مما كان معمولاً به من رسوم وصيغ إبّان عصر المرابطين، ونقله إلى الديوان الموحدي، وأضاف إليه رسوماً جديدة اقتضتها طبيعة المرحلة، وأوجدتها فلسفة العقيدة والسياسة الموحدتين، ويمكن تلخيص ذلك بما يأتي:

أ ـ من الرسوم التي نقلها ابن عطية عن المرابطين فسنّها في نهج المكاتبات الموحدية وأقرت من بعده فغدت أسلوباً موحدياً هي:

١ ـ ذكر اسم المكان الذي صدرت عنه الرسالة[١١١].

٢ ـ ذكر تاريخ كتابة الرسالة في حشو المكاتبة[١١٢] وقد انتظم هذا الرسم عند ابن عطية في رسالة الفصول والرسالة الثالثة من المجموع فقط.

٣ ـ استهلال الموضوع الأساس للرسالة، بعد ذكر الرسوم التمهيدية التي تحدثنا عنها، بلفظ ـ كتابنا ـ [١١٣]، وقد أضاف إليه ابن

عطية دعاء للمرسل إليه ـ مشتقّاً من فعل الكتابة، بدلاً مما كان معمولاً به أيام المرابطين وهو الدعاء بشكل عام.

ب ـ أما الرسوم التي يعتبر ابن عطية سباقاً في إضافتها إلى رسوم المكاتبات الموحدية والتي غدت صيغاً معروفة يحذو حذوها الكتاب من بعده فهي:

١ ـ ذكر اسم المُرسِل.

٢ ـ ذكر اسم المرسل إليه.

٣ ـ تحية الإسلام ثم التحميد والبعدية.

٤ ـ الصلاة على الرسول ﷺ.

٥ ـ الترضية عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم.

ومما سبق تتضح معالم الرسالة الديوانية في عصر الموحدين وتتحدد رسومها وعناصرها، وهي على كل حال معالم تجمع بين ما أخذ عن المرابطين وما أضيف إليه في بدايات عصر الموحدين، والفضل بجملته يعود إلى صنعة ابن عطية وابتكاراته، وقد طبعت الصبغة العطيوية، بشكل عام، مكاتبات الكتاب الديوانيين من بعده طوال عصر الموحدين، وإذا كانت هناك إضافات تذكر على رسائلهم الديوانية فهي لا تعدو أن تكون إضافات هامشية وغير جوهرية، ولا أعتقد أن مؤلف المعجب كان يقصد هذه الرسوم والصيغ التي اعتمدتها مكاتباتهم حينما تحدث عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عيّاش (ت ٦١٩هـ) كاتب الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وابنه محمد وابن ابنه يوسف بقوله «ولم يكتب لهم ـ أي للموحدين ـ منذ قام أمرهم مَن عرف طريقتهم وصبّ في قالبهم وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في نفوسهم كأبي عبد الله بن

عياش هذا، فإن القوم لهم طريقه تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة»[١١٤]، لأن ابن عطية كان أسبق منه إلى توظيف تلك الرسوم والصيغ في مكاتباته وأقدم في استعمالها[١١٥]، ولكني أرى أن المراكشي كان يقصد بمقولته السابقة شيئاً آخر. ولقد وهم أيضاً في الموضوع نفسه أحد الباحثين[١١٦] فجعل الفضل كلّه لابن عياش في تقعيد رسوم كتابة الرسائل الديوانية الموحدية، فالذي نعرفه أن ابن عياش هذا قد اعتمد الرسوم العطيوية نفسها ولكنه خفف رسائله من بعضها ولم يلغها أو يأتي ببدائل عنها[١١٧].

مضامين رسائله الموضوعية والفنية:

لقد أشرنا فيما مضى إلى المكانة الرفيعة التي حظي بها ابن عطية في بلاط الموحدين، والدرجة المرموقة التي نالها لدى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي حتى غدا كاتبه ووزيره في آن واحد، وهما مكانة ودرجة لا يبلغهما أحد أو ينالهما محظوظ إلا إذا كانت لديه من المؤهلات العلمية والثقافية ومن المقومات الشخصية والذاتية، ما تعجب مخدومه وتستحوذ عليه، ويبدو أن ابن عطية كان جديراً بذلك، مؤهلاً لينال تلك الحظوة ويطول تلك الصهوة حتى «عدّ أول وزير للدولة الموحدية بالمعنى الصحيح، فألقيت إليه مقاليدها، فكان وزير حكمها بلا منازع، كما كان مستشارها في تسيير أمورها وتحريك دواليبها الإدارية»[١١٨]. وإذا كان كتاب الدواوين «حريصين على نوال رضا رؤسائهم وزيادة الحظوة لديهم متوسلين إلى ذلك بما يقدمونه من إبداع في مكاتباتهم، ومن قدرات على فهم ما يدور في خاطر السلطان أو الأمير أو المخدوم، وما يرغب في التعبير عنه وإيصاله إلى الآخرين ممن تكتب إليهم الرسائل»[١١٩]، فإن ابن عطية قد ساعدته

على ذلك مؤهلاته الذاتية وثقافته الواسعة ومعارفه الجمة إضافة إلى ما كان يتمتع به من حنكة ولباقة وذكاء وسرعة بديهة وكياسة وخلق سمح ومكارم، وقد ألمحنا إلى ذلك في حديثنا عن حياته، وإذا كنا هنا نريد أن نكتب عن جوانب رسائله الفنية فإن ذلك يقتضي الوقوف عند جملة النصوص التي أثرت عنه لنستخلص منها ما يكشف عن ومضات فنية رائعة أو صور بديعة ظريفة، صاغها قلمه المبدع وهو يكتب عن أمير المؤمنين إلى رعيته في موضوعات سياسية أو دينية أو اجتماعية.

ولقد كان ابن عطية مُعْجِباً في كلّ ما كتبه، لأنه ـ وأمثاله من كتاب الدواوين ـ يجاهدون من أجل الوصول إلى تقدير مخدومهم وإثارة إعجابه بما يكتبون «ولذا فإننا نقدر أن الرسائل الرسمية قمة في الجودة الفنية. لأن منشئها يوظف كل قدراته الفنية والعلمية والثقافية وما يمتلكه من معارف لإخراج رسائله في أبهى رونق وأحسن شكل، وألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة لتثير أولاً دهشة مولاه، ولينتزع، ثانياً، إعجاب المجلس الذي ينصت إلى تلك الرسائل سواء في الحضرة التي تكتب فيها أو الحضرة التي تكتب إليها.[١٢٠] فكانت رسائله بحق مشتملة على قدر كبير من الصنعة والعناية متوشحة بالمحسنات البلاغية، والرونق الشكلي الذي يضفي عليها جمالية مميزة، ولكن مثل هذه الرسائل الديوانية لا يمكن وصفها بصدق التعبير ولا بعفوية التدفق لأنها لا تصدر عن وجدان كاتبها أو تنقل عواطفه وأحاسيسه الذاتية، فهي تكتب عادة عن غيره ولأنها تتناول موضوعات لا تصح فيها العواطف والانفعالات، ولا تكمن فيها المشاعر أو الوجدانات، فهي غالباً ما تكون في مجالات الوعظ والإرشاد والنصيحة أو مجالات التهديد والوعيد أو الإخبار عن حدث أو خطب من حرب أو فتح أو غيرهما.

وعلى كل حال فإن ابن عطية يعد «مؤسس الترسل السلطاني في دولة الموحدين بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة»[١٢١]، وكان أسلوبه بليغاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع»[١٢٢] يستند فيه إلى قاعدة عريضة تقوم على ما يمتلكه من ثقافة متنوعة ومن خبرة وتجربة وباع في ميدان الأدب اكتسبها عن أبيه الذي كان يشتغل في صنعة الكتابة الديوانية من قبل[١٢٣]، وفي دراسة مضامين رسائله لا بد أن نقف عند موضوعاتها وفنونها وما ارتكزت عليه من ثقافة دينية أو تاريخية أو بلاغية أسلوبية وهو ما سنفصل القول فيه:

أ ـ موضوعات رسائله:

تدور موضوعات رسائله في مجالات محددة بحكم طبيعة الهدف الذي تكتب من أجله الرسالة، فما دامت الرسائل السلطانية تصدر عادة عن مركز الخلافة أو توجه إليه فمن البدهي أن تحتوي على ما يخص السياسة والحكم والتوجيه ومخاطبة الرعية، وأن تعالج قضايا تهمّ الخليفة أو الحاكم.

ومن نظرة إلى رسائل ابن عطية نجد أن رسالته الماسية التي بعثها عن أبي حفص من وادي ماسة إلى الخليفة عبد المؤمن كانت تحمل البشرى بالنصر على الثائر الماسي المدعي للهداية (محمد بن عبد الله ابن هود) ومصرعه والقضاء على ثورته، وفي الموضوع ذاته كانت رسالته الخامسة حسب ترتيب بروفنسال في كتابه مجموع رسائل موحدية، وهي في الحق موجهة إلى طلبة سبتة يخبرهم ـ على لسان الخليفة ـ بوصول كتابهم عن غزوة أسطولهم على النصارى بمدينة المرية. وفيها تلخيص لما وقع بين المسلمين والنصارى في البحر من قتال عنيف، والإشادة ببطولة المقاتلين المسلمين، ثم حمد الله وشكر له على هذا الفتح...

ويأتي بإشارات إلى أمور أخرى تطرقت إليها رسالة طلبة سبتة الموجهة إلى الخليفة عبد المؤمن.

وكانت الرسالة التاسعة من المجموع نفسه تتحدث عن غزوة الموحدين في البلاد الشرقية وظفرهم على الأعراب بناحية سطيف ويقصد بهم قبائل بني هلال.. «واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره ولم يسر الموحدون فيه ـ على ما ذكروه ـ إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدور على عمدتها منصوبة قائمة... حيّ إلى جنب حي وشيء متصل بشيء مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال. فبأعداء الله ما بهم من قتل مفن، وانهزام مبعد وحمام مدن،... غشيتهم تلك الفواشي الغوافر، فذل لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويل بهلال بني عامر...»(١٢٤).

وتضمنت رسالته الحادية عشرة من المجموع المذكور إخبار الولاة والشيوخ من الموحدين بالقضاء على ثورة أخوي المهدي (عبد العزيز وعيسى) بمراكش وما أنزل بهما وبأنصارهما من عقاب شديد(١٢٥) «وكان حكم الله فيهم حزّ رؤوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها»(١٢٦).

أما رسالة الفصول فقد تضمنت قوانين العدل والسياسة والرياسة ـ كما يقول ابن عذاري(١٢٧)، وفيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقيد بأحكام الدين، في معالجة بعض الخلل والمفاسد التي وصل خبرها إلى الخليفة من ذلك مثلاً: جرائم القتل من غير حق والاعتداء على المسلمين وسلب أموالهم، ومظالم بعض الولاة في ضرب الناس بالسياط وكذلك أمر الضرائب والمغارم والمكوس، وما يتعلق بتزويج المرأة المطلقة دون استبراء(١٢٨)، ومحاربة شرب الخمر ومراقبة مواضع بيع «الرُّب»(١٢٩) واعتصاره للتأكد من كونه لم يبلغ حدود التحريم، وتعرضت

أيضاً لما يقع فيه الرقاصون من حملة البريد من استغلال للناس «يحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم»(١٣٠).

ثم تختتم الرسالة بالدعوة إلى معاملة الرعية بالشفقة والحنان والرفق والعدل.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الرسالة تأخذ أهميتها مما جاء فيها من إشارة صريحة إلى اتباع رسم جديد اعتمده الخليفة عبد المؤمن في مراسلاته وهو إثبات العلامة الموحدية بخط يد الخليفة نفسه فقد ذكرت الرسالة ما نصه «ولما كان هذا الأمر عندنا ـ وفقكم الله تعالى ـ أهم أمر وأوجبه وأحق ما أدناه الحق وقربه... رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وها هي قد رفعت الأشكال رفعاً بيّنا، وأرتكم فرط اهتبالنا حقّاً مبينا»(١٣١)، وقد أصبحت هذه العلامة إشارة مميزة إلى مراسلات الخلفاء من بعده. وفي عودة إلى موضوع الوعظ والإرشاد وتوجيه الحكام بالحِفاظ على أحكام الدين والتمسك بقانون الإسلام في التعامل مع الرعية.. ودعوة الرعية إلى الالتزام بآداب الإسلام وتعاليمه وتجنب ما يغضب الله ورسوله، نلمس أن هذا الموضوع يستحوذ على معظم رسائله بشكل عام ولكنه ينفرد في بعض من رسائله بشكل خاص، مثلما هو في رسالة الفصول السابقة، ومن تلك المكاتبات التي عالجت الموضوع المذكور: رسالته الأولى ضمن ترتيب بروفنسال في مجموع رسائل موحدية والرسالة الثالثة التي تشير إلى رسالة طيها ـ هي أشبه بالإعمام على أقطار الدولة كافة ـ تحتوي على وصايا وتوجيهات. وإننا لنؤيد هنا ما ذهب إليه الدكتور محمود علي مكي من أن المطوي هو رسالة الفصول، لأن تاريخ كتابة الرسالة الثالثة كان بعيد كتابة الفصول بأحد عشر يوماً(١٣٢).

والموضوع مثله في الرسالة السادسة الموجهة إلى المشيخة بقرطبة، والرسالة الخامسة عشرة التي وجهها الخليفة إلى طلبة سبتة.

وقريب من الغرض السابق رسائل كتبت إلى بعض القبائل أو الأمراء الحاكمين ممن لم يستسلموا للموحدين وظلوا مجانبين للتعاون معهم أو الانضواء تحت لوائهم، تدعوهم على لسان الخليفة إلى الإيمان بدعوة الموحدين وتحبب إليهم تعاليمها وتكبر في نظرهم مؤسسها وقائدها الذي هو الإمام المهدي، وهذه الرسائل هي: الرسالة الرابعة في مجموع رسائل موحدية وقد وجهها أمير المؤمنين إلى الشيخ الأجل أبي زكريا يحيى بن علي يعني ابن غانية فقد جاء فيها في أمر المهدي ومكانته قوله «وهذا الأمر ـ وفقكم الله، هو أمر المهدي ـ رضي الله عنه ـ حقّ فتأمل، ومع معالمه الجلاء فلا ظنٌّ ولا تخيل، والمهدي ـ رضي الله عنه ـ قد بشر به النبي ـ ﷺ ـ في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديثها، ودلّ على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه بأدلة رفعت الأشكال والتعسف، فأتى ـ رضي الله عنه ـ كما نعت النبي ـ عليه السلام ـ ووصف... إلخ»[١٣٣].

وقد تكرر الغرض نفسه في رسالته السابعة التي صدرت عن الخليفة إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة، والرسالة العاشرة التي بعثها إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد، يعني ابن مردنيش، حيث تضمنتا ـ كالسابقة ـ الدعوة إلى الإيمان برسالة المهدي واعتناق مذهب الموحدين الذي جاء «لإراحة جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم ويعرفونه من أسباب المظالم»[١٣٤].

ويتضمن فحوى الرسالة الثانية عشرة تصنيف الموحدين إلى

ثلاث طبقات يبين قدر كل واحد منهم، وهي بعد مقدمة طويلة في النصح والوعظ ينتقل الكاتب إلى عرضه الأساس فينصّ على التالي «وابتدىء بتطوير الناس على طبقات ثلاث يعرف بها كلّ واحد قدره ويقف بها عند حدّه.. فالطبقة الأولى هم السابقون الأولون الذين بايعوا المهدي ـ رضي الله عنه ـ وصحبوه وغزوا معه وصلّوا خلفه والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها.. ويتلو هذه الطبقة من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران، والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هَلُمّ جرّا»[١٣٥].

وتعالج رسالته الثالثة عشرة مسألة ولاية العهد، فتركز على أن تسمية محمد بن أمير المؤمنين ولياً للعهد جاءت تلبية لرغبة المشايخ والطلبة والعشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية[١٣٦]، ولم يكن مخططاً لها من قَبلُ أو مرسوماً في نفس الخليفة «فاعلموا ـ وفقكم الله ـ بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقد سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق»[١٣٧] وتأتي الرسالة الرابعة عشرة لتؤكد الغرض السابق نفسه وتشير إليه[١٣٨]، ولكنها تضيف إلى تسمية ولي العهد أموراً أخرى تتعلق بتعيين بعض أبناء الخليفة ولاة على بعض الأصقاع الموحدية، وتَأتّي ذلك كله استجابة لرغبة أبناء البلاد وجمهور الموحدين، فمنهم مثلاً أبناء تلمسان «فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرَّد والشأن المسعد، حظ يفوزون بنعماه ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه، بأن يستصحبوا من الإخوة المذكورين ـ يعني أبناء الخليفة ـ من يكون إليه استنادهم ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم... إلخ»[١٣٩] ومثله تفعل غمارة وسبتة[١٤٠]. وكل هذه الأمور أتت «على غير قصد منا ولا

ذكـر بل على وجـوه يُعلم بالضـرورة أنها نشـأت لأحيائهـا، وظهرت دون مقدمة لأعيانها»[١٤١] وتأكيد الكاتب في رسالتيه السابقتين أن اختيار ولي العهد والولاة من أبناء أمير المؤمنين بطلب من الرعية وبإلحاح من الجمهـور يقوي المقصـود ويعزز الغـرض في كسب تأييـد الآخـرين وموافقتهم وبالتالي مبايعتهم.

هذه هي جملة الأغراض التي عالجتها رسائل ابن عطية وهي في الواقع متفرعة عن الإطار العام الذي هو الرسائل الديوانية، ومعبرة عما يتطلبه ويطلبه المقام الخلافي من شؤون واهتمامات.

ب ـ خصائصها الفنية:

لما كانت الرسائل الديوانية ـ وكما ذكرنا سابقاً ـ تصدر عن حضرة الخليفة وتتحدث بلسانه، فلا بد أن يبذل منشئها في صياغتها جهداً كبيراً وأن يسخّر كل إمكاناته اللغوية والأسلوبيـة والثقافيـة ليخرجهـا بأحسن صورة وأجمل رونق، وأن ينمقها بالألفاظ الرقيقة وبالعبارات الرصينة معززاً إياها بما يختزن في ملكته من التراث الديني والأدبي وما يعرفه من أخبار وتاريخ وقصص ومواعظ وحكم. وقد يميل أحياناً إلى الجزالة والبسالة في ألفاظه وعباراته، حتى يعطي كل مقام ما يستحقه من مقال، فيجيد التعبير في كل ما يطلب منه، ويسيل قلمه بلا تعثر ولا تردد أو إحجام، ولكون كتاب السلطة «يعالجون مـوضوعـات منوعـة ويعبرون عن توجهات الحكام ووصاياهم وآرائهم في مختلف القضايا والشؤون، فإن طبيعة عملهم تتطلب منهم بالضرورة ثقافة موسـوعية وخزيناً من المعارف والمعلومات التاريخية والدينية والأدبيـة وغيرهـا ليكون الكاتب قادراً ومتمكناً من تناول تلك الموضوعات والتعبير عنها بوضوح ودقة تحققان هدف المكتوب عنـه وغايتـه، وتصيبان مـا في نفسه»[١٤٢]، ومن وقفة مع ابن عطية ندرك أنه كان يتمتع بكل ما تتطلبه

هذه الصنعة من قدرات ذاتية ومن مواهب وصفات، كما نلمس بجلاء أن نثره الديواني كان يتسم بخصائص فنية معينة، ويتحلى بسمات ومزينات أسلوبية أو لفظية مميزة تعكس ما تزخر به ذاكرته من فيض المعارف التراثية بشتى صنوفها وألوانها، ويمكن أن نحصر ما تحلت به رسائله من خصائص فنية بالنقاط التالية:ـ

أ ـ كان ابن عطية يمتلك قاعدة ثقافية عريضة، تزخر بشتى ألوان المعرفة، وفي المقدمة منها معلومات دينية واسعة من حفظ لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم ﷺ وتفسير لهذا وذاك وما يتعلق بهما من أخبار وقصص وسير، وقد تجلت ثقافته تلك بوضوح في رسائله حيث استخدم ذلك التراث في نسيج بنائه النثري، وعدّ عنصراً مهمّاً من عناصر مقومات رسائله الديوانية، لأن غرض الموضوع والهدف من تلك المكاتبات يقتضيان بل ويستلزمان حضور مثل تلك المعارف. وقد أحسن ابن عطية في استخدامها وتوظيفها، فجاءت قوة في الفكرة ورصانة في الصياغة وجودة في التعبير عما يراد التعبير عنه وهنا تظهر الحنكة والذكاء في الاستعانة بالتراث وتسخيره أداة طيعة لخدمة غايات الكاتب. ومن خلال رسائل ابن عطية نقف على استشهاده بنصوص من آيات القرآن الحكيم أو أحاديث الرسول العظيم ﷺ، ففي رسالة الفصول أكثر الكاتب فيها من الاستناد إلى الاستشهادات الدينية لما تستوجبه طبيعة موضوع الرسالة، لنسمعه يقول: «والشقي من أتى مليماً، باكتساب الكبائر ملوماً «وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين، وفي الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين «وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»»[١٤٣] ثم يستطرد الكاتب قائلاً في الصفحة

نفسها «وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء وبرأفته كشف عنهم العماء، قال النبي ﷺ : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١٤٤).

وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول «ولا يمرون بآذانهم ما يفعل الله تعالى بأمثالهم ولا يحذرون «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»(١٤٥)، وقبل هذا النص أورد حديثاً نبوياً بقوله «والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول «من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب: سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة؟»(١٤٦).

واستخدم نصوصاً أخرى من حديث النبي ﷺ فقد قال وهو يتحدث في رسالة الفصول عن تحريم الخمر «الحلال بيّن والحرام بيّن ولقضايا الشرع نظام قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته عليه وسلم «ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام»(١٤٧).

وقد يأخذ الكاتب ابن عطية جزءاً من النص القرآني أو النص النبوي أو يأخذ معناهما فيضمنه مكاتباته ليسند فكرة أو يقوي رأياً أو يعزز نسيجاً أو يرصن لغة. فمن ذلك قوله «فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى»(١٤٨) وهذا مجزوء من الآية الكريمة «وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ»(١٤٩). وقال في رسالة أخرى «وألفته الأهواء وحجبت المناصحة فيه الأسماع، ونسي كلٌّ ربه فأنساه نفسه»(١٥٠) فقد استخدم الكاتب روح الآية الكريمة وحافظ على معناها لأن نص الآية يقول «وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»(١٥١) وفي عبارة أخرى يأخذ جزءاً من آية فيحسن الأخذ والحفاظ على روحية النص القرآني ومعناه، يقول ابن عطية: «وترددت عقولهم المعقولة بين نفاثة في عقدها»(١٥٢) وهو معنى مأخوذ من القرآن الكريم في سورة

الفلق «ومنْ شرّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ»(١٥٣)، وعندما يقول في موضع آخر: «حصحص الحق الذي لا يدفع، وظهرت الأصول التي يبنى عليها ويرفع»(١٥٤) فإن جملة حصحص الحق، في الحقيقة، مقتبسة من قوله تعالى في سورة يوسف «قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ»(١٥٥).

وجاء في رسالته الماسية قوله «وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً»(١٥٦)، وهو بلا شك قد نظر إلى قوله تعالى «إِنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»(١٥٧)، ويأخذ قوله «ونسلت إليه الرسل من كل حَدَب»(١٥٨) من الآية الكريمة، «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ»(١٥٩)، ولقد أكثر من الاقتباس من الآي الحكيم في رسالته الماسية هذه(١٦٠).

ومن اقتباساته من روح الحديث الشريف وألفاظه ما جاء في رسالة له «ما أراهمْ طلبه فرضاً، وكونه كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً»(١٦١) فهو واضح الاستفادة من الحديث الشريف الذي يقول نصه «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»(١٦٢).

وفي رسالة أخرى يشير ابن عطية إلى حديث نبوي دون أن يذكر نصه فيقول «والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الحور»(١٦٣)، والحور كما ذكر محقق نظم الجمان هي «النقصان، وفي مقولة ابن عطية إشارة إلى الحديث الشريف «نعوذ بالله من الحور بعد الكور» أي من النقصان بعد الزيادة أو نعوذ به من فساد أمرنا بعد صلاحها»(١٦٤) فالكاتب لم يضمن الحديث بنصه وإنما جاء بمعناه وفكرته مستفيداً منهما في معالجة موضوعه الذي هو التحذير من مفاسد أصحاب البريد وما يوقعونه من مظالم على الرعية.

وفي موضع آخر يستفيد الكاتب من جزء من الحديث الشريف كقوله «وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا ـ كما قال عليه الصلاة

والسلام ـ ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»[١٦٥]، ونص الحديث هو «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[١٦٦]، فكان الكاتب متصرفاً بالنص ولكنه مستفيد مما يحتويه من مضامين وأفكار، أما في مجال استخدام التراث الأدبي والتاريخي في بناء الرسائل الديوانية فلم يكن واضحاً مثلما هو في التراث الديني الذي أشرنا إليه آنفاً، ولكنه كان(بيّناً وواضحاً في رسالته الاستعطافية، ومع ذلك فقد كان ابن عطية يمتح من مخزونه ما أمكن، ليضمّن مكاتباته منه، أمثالاً شائعة أو أقوالاً مأثورة أو ألفاظاً نادرة معبرة، وليشير، ولو بطرف خفي، إلى معارفه واطلاعه وثقافته، فمن تلك الاستخدامات للمأثور الأدبي قوله : «وأقبل جميع من ذكرناه لكم. . . بقضهم وقضيضهم»[١٦٧] والمثل العربي يقول: «جاء القوم قضهم بقضيضهم»[١٦٨]

ويقول في رسالة أخرى : «فلا متردم من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء»[١٦٩] وأرى أنه مأخوذ من قول شاعر الجاهلية عنترة العبسي :

«هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم»

وفي رسالته الماسية ـ وكما لاحظنا آنفاً ـ التي كانت سبب شهرته ورفعة مكانته تضمين كثير من الثقافة الأدبية وكأنه كان بهذه الرسالة يمتحن قدراته ويعصر قريحته الأدبية والفنية ليظهر إمكاناته الدفينة، ويشير إلى منزلته التي كان ينعم بها في بلاط المرابطين، فلنسمعه يقول فيها :

«وتقلب في النعم أكرم مُنقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكَرَب :

فتح تُفتّح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشُب[١٧٠]

فالبيت الشعري من قصيدة أبي تمام المشهورة

«السيف أصدق أنباء من الكتب. . . . . .»

وفي قوله «عقد الكرب» تذكير بقول قديم، بل مثل سائر يقول نصه «شدّ عقد الكرب»[١٧١].

ومثله ما جاء في قوله «وتساقطوا على وجوههم كتساقط الذباب»[١٧٢] حيث اقتبس من المثل المعروف فكرته وجزءاً من ألفاظه «يتساقطون تساقط الذباب على الشراب»[١٧٣].

أما قوله «لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا»[١٧٤]، فهو مستفيد من قول الشاعر أبي بكر أحمد بن محمد الأبيض في هجاء الفقهاء:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب يختل في الظلام القاتم[١٧٥]

ب ـ اهتم ابن عطية بالصياغة الشكلية وجمالية التناسق والتوافق بين الجمل وما يتولد عن الحروف من جرس أو صوت، ولذا فقد أعطى أديبنا للسجع وللسجع الداخلي أهمية فائقة، لأنه يدرك مقدار ما يخلفه السجع من تأثيرات في نفوس السامعين، كما عني بالمحسنات اللفظية والشكلية الأخرى من وسائل وأساليب بلاغية معروفة كالجناس والطباق والتشبيه والكناية إلى غير ذلك.

وعند تتبع رسائله وما تضمنته أو اعتمدته من صيغ وأساليب بلاغية لتحسين الشكل أو تزيينه فإننا نلاحظ أن نصوصه كانت تراوح في سجعها بين السجعتين والثلاثة حتى تصل إلى إثنتي عشرة سجعة، يقول في إحدى سجعاته الثنائية «ولتعلموا ـ وفقكم الله وسلك بكم سبيل هداه ـ أن قصد هذا الأمر الكريم، في الحضور والعموم، إظهار دين الله تعالى على ما أوجب وفرض، وجهاد من نكب عن سبيله

وأعرض، وقطع آثار الظلمة كثيرها وقليلها، وإجراء الأمور كلها على منهجها الشرعي وسبيلها»[١٧٦]، أما سجعته الطويلة فمنها قوله «ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الإيماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام. . . إلخ»[١٧٧] حيث أورد اثنتي عشرة سجعة ميمية مسبوقة بالألف. . أما ما بين النوعين السابقين فهو كثير في رسائله ويمكن اكتشافه من القراءة الأولى للنصوص.

وكان يفرع في سجعاته فيأتي مثلاً بمجموعة من الجمل مسجوعة على حرف ثم ينتقل إلى سجعة أخرى ليعود بها إلى السجعة الأولى نفسها وهكذا يلون ويغير في وقع الأصوات ليخلق منها موسيقى قريبة للشعر تشد السامع وتنشط القارىء أو المتلقي. . من ذلك مثلاً «أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعده الصادق، إتمامه وإنجازه، وتحصّل لحزبه الآخر السابق، إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوّه الفاسق المارق، قهره وإعجازه، والصلاة على محمد نبيه الأمين، الذي أظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفّت على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين، الذي تجلى بهم تعيّن الإسلام وامتيازه، والرضوان المستدام عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، موضح سبيل الرشاد حين عمّ استغواء الشيطان واستفزازه، ومُنجح أسباب الارتياد إذ تيسّر اغتنام المطلوب وانتهازه»[١٧٨] ونرى في القطعة السابقة أن ابن عطية قد فرع ونوع في تقفيته حيث بنى القطعة على لزوم ما لا يلزم فالتزم بالحروف (الألف والرّاء والهاء) ثم كان يأتي بسجعة أو سجعتين ليعود بعدها إلى تقفيته الأولى[١٧٩]. ويمكن أن نلاحظ في القطعة نفسها استخدام الكاتب التقفية الداخلية في عباراته الأولى من النص. وهو أسلوب

يضفي جمالية شكلية صوتية على النثر، منه قوله «نحمده بما يتعين من حمده الواجب، ونصلي على محمد نبيّه العاقب»(١٨٠)، ومنه أيضاً في رسالة أخرى «فادوا من حق هجرتهم البرّة. . . ما قلدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة. . ما اعتمدوه»(١٨١)، وهذا النوع من أنواع السجع هو ما يطلق عليه الكلاعي اسم المغصن(١٨٢)، ولزوم ما لا يلزم أسلوب عرفه الشعر ونظم فيه الشعراء متباهين بمقدرتهم اللغوية، ثم انتقل إلى النثر فغدا الكتاب يعتمدونه في استعراض لغوي، لكنه لا يخلو من جمالية فيما إذا أحسن استخدامه، وروعي عدم الإكثار منه، لئلا يتحول إلى تصنع ممجوج ثقيل. ولابن عطية ـ كما لاحظنا قبل قليل ـ اصطناع لهذا اللون البلاغي في رسائله الديوانية رغبة منه في إضفاء جمالية عليها وإظهار مقدرته اللغوية وتفننه الأدبي. . من أمثلة استخدامه للزوم ما لا يلزم قوله «واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محلّ قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطّان لطلب الرضوان به واغتنامه، فكيف به وقد أظلتكم في عقر دياركم رايته، وتجلت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته»(١٨٣).

وإذا كان لزوم ما يلزم يدعو إلى القسر والتكلف مهما يحاول الكاتب تخفيفه وعدم الإكثار منه، فإن سجعهم بشكل عام يأتي «عفو الخاطر غير متكلف ولا مجتلب لذاته، فهو ذلك اللون الذي يحسن به الإيقاع وترتاح إليه الأسماع»(١٨٤).

ومن اهتماماته الشكلية التي تولي جانب الصوت والجرس أهمية خاصة، ما نلمسه في مقدار الجهد الذي يبذله الكاتب من أجل إعطاء إنشائه رونقاً خاصاً وطعماً مميزاً، متكئاً على قدرات في الصنعة

البلاغية التي تعنى بجانب المحسنات من جناس أو طباق أو تورية أو غيرها. فقد يكرر الألفاظ بحروفها وصوتها أو يشتق من الأفعال مفعولاتها المطلقة أو غير ذلك من ألوان الجناس التي يحسّ أنها تضفي على الإيقاع أصواتاً متناغمة، وتخلق روحاً موسيقية عذبة في عباراته، فمن ذلك ما نقرأه في إحدى رسائله من تكرار «. . . يقروها فرعاً فرعا وأصلاً أصلا، ويقرها على مثلٍ مثلا، وعلى شكل شكلا»(١٨٥) ومثله «فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشئات الكافرين ما حرقوا»(١٨٦)، ومثله قوله: «كل كبد ذات كبد، وقريحة ذات قروح»(١٨٧)، ومنه «وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يساعد ويساعد، ويعاضد في ذات الله ويعاضد، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابر في ذلك ولا يجاحد»(١٨٨)، فغرض التكرار واضح بيّن وهو إعطاء مزيد من التدفق الصوتي، ويظهر ذلك أيضاً في اشتقاق المفعول المطلق من الأفعال كقوله «. . فقطعوها قطعاً بتّا، وفتّوا بصرمها عن البر أعضاد الكافرين فتّا»(١٨٩). ونجد مثله في رسالة أخرى قوله «وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإكلاء مطالبكم أكرم إنابة، . . . فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكراً تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة. . .»(١٩٠)، أو يشتق من الفعل اسم فاعله كقوله «وإن عاج عن سنة إخلاصهم عائج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج»(١٩١) ومثله قوله في الرسالة نفسها «وأخطرت على مجاري التنبيه خواطرهم، وأجري النعت فيما درج عليه دارجهم، وصار إليه صائرهم»(١٩٢). ويقول في موضع آخر مستخدماً ألوانا أخرى من المحسنات اللفظية «واعقدوا عليه عقد المغتبط الضنين، وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذله جوانحكم تخلّل المبالغ الممعن»(١٩٣) واستخدام هذا اللون من الجناس كثير عند ابن عطية وهو

مفضل لديه، ولكنه كان إلى جانب ذلك يستعين بالطباق لتحقيق غاياته في تجميل أسلوبه منه قوله «يمحضُ اللّهُ بهنا المؤمن ويمحق الكافر»[١٩٤]. وفي العبارة تزاوج بين الجناس والطباق، وكذلك يقول «والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه»[١٩٥] ويطابق في العبارة التالية بين العدل والجور وبين الحياة والهلاك وبين السعيد والشقي إذ يقول «. . وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرءاً من اتباع الهوى سليما، والشقي من أتى مليما»[١٩٦]، ويورد في مكان آخر طباقاً بقوله «ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإسهال»[١٩٧]، وفي مجال التورية نجد أن رسالته الاستعطافية قد أكثرت من هذا اللون إكثاراً ملحوظاً بما استخدمته من أسماء الشخوص للتورية بهم عن أشياء كان يرمي إليها الكاتب، وهذا الاعتناء بترصيع الألفاظ والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية ـ كما يقول ابن تاويت ـ[١٩٨] كانت طابع العصر وأسلوبه، وبها يهتم الكتاب ويتبارون فيها ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يبتعدون أحياناً عما يقتضيه واقع الحال، وهم يكتبون عن السلاطين والحكام، فيجنحون إلى الخيال الشعري، وإلى تضمين رسائلهم عبارات وجملاً فيها من الصور والخيال والتشبيهات والاستعارات ما يخرج بها عما تتطلبه رسالة رسمية موجهة إلى حكام البلاد أو إلى الجمهور ذات موضوعات سياسية أو دينية أو إرشادية أو غير ذلك من شؤون الدولة، فمن تلك الصور والتشبيهات الشعرية قوله «حتى سطت مراقات الدماء على صفحات الماء وحكت حمرتها على زرقة حمرة الشفق على زرق السماء»[١٩٩]، ويحسن الكناية والتشبيه عندما يتحدث عن أعداء الموحدين الذين غرهم انسحاب جيوش الموحدين أمامهم لا لغلبة وإنما لخدعة رسمها قائدهم يقول «والأقدار تجرهم برسن الإهمال

أجرارا، وتطوي في صدن الزمن مخبيئات من الامتحان وأسرارا»[٢٠٠] فإهمال الأعداء وسوء تقديرهم كالفرس المهمل الخامل يُجر جراً، وكأن الزمن يخبىء لهم في صدره وبين طياته من المحن والأسرار ما سوف يذهلهم ويرعبهم . . وفي مكان آخر من الرسالة نفسها يقول وهو يصف المعركة التي تساقط فيها الأعداء كتساقط الذباب وانكسروا فيها وانهزموا « . . فذلّ لها المأمور منهم والآمر، وحاق الويل بهلال بن عامر، أفل الهلال وخرب العامر ولم يحلّ بين سيوف الموحدين ورقاب الغلّ من أولئك المفسدين إلا ليل أجنّه بغسقه، وطواه على أخريات رمقه» .

ومن صوره وتشبيهاته قوله «ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب، وأُنفرت حيات إذايتهم تنسلّ وتنساب، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكاً لا يشك فيه ولا يرتاب»[٢٠١] .

جـ ـ ورسائل ابن عطية مثل بقية رسائل العصر الديوانية تستخدم في حشوها جملاً اعتراضية في الدعاء غالباً، وبخاصة حينما يرد ذكر للخليفة أو لأحد كبار الموحدين أو اسم لمدينة، منه قوله مثلاً «من أمير المؤمنين ـ أيده الله بنصره وأمده بمعونته، إلى الطلبة . . وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه . . إلخ»[٢٠٢] .

ويقول في الرسالة نفسها : وقد صدرنا ـ وفقكم الله ـ على الحضرة العلية ـ تينملّل ـ كرمها الله ـ بعد . . »[٢٠٣] ، وكما هي العادة الجارية في مراسلاتهم الموحدية أن يستهلوا الغرض الرئيس من الرسالة بعبارة . . «وهذا كتابنا إليكم» أو ما يشبه ذلك ثم يأتوا بعدها بجملة اعتراضية دعائية مشتقة من فعل الكتابة وقد تطول أحياناً، منه قوله «وهذا كتابنا إليكم ـ كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه . ونصرة ما أملتموه، أكرم إدامة

وأقام لكم في العالمين من شواهد الإخلاص أبين إمارة وأوضح علامة ـ من حضرة مراكش . . إلخ»[٢٠٤]، (ويكون الدعاء على الأعداء أيضاً بجمل اعتراضية مناسبة منه قوله: ولم يعلموا ـ وقمعهم الله ـ أن وقاية الله هي التي تعصم)[٢٠٥]، ودعوات الصلاة والترضية تأتي أيضاً هي الأخرى بعد ما يناسبها من ذكر أو قول.

د ـ أخذت رسائل ابن عطية في بعض فقراتها شكل الخطبة الدينية من حيث استخدامها الأسلوب المباشر واعتمادها على أفعال الأمر وهو نمط تفرضه ـ في كثير من الأحيان ـ طبيعة الموضوع الذي تعالجه الرسائل، وما دامت معظم محاور مكاتباتهم الديوانية تتعلق بشؤون السياسة والحكم وبمشكلات اجتماعية أو دينية، فلا بد والحالة هذه أن نتوقع كون أسلوب المكاتبات يجنح إلى مثل هذه الصيغ واللغة الخطابية المباشرة، من تلك الفقرات ما ورد في رسالة الخليفة إلى الطلبة بسبتة وجميع منْ فيها من الموحدين خاصة وعامة «فاشكروا الله، عباد الله، شكراً دائما . . وأحسنوا ضمائركم، وطهروا سرائركم . . وتوبوا إلى الله جميعا . . . ونعوذ بالله من الخسران، وقد آن لكم أيها المؤمنون أن تجددوا توبتكم تجديداً وكيدا وتغتنموا من هذه النصائح . . فبادروا إلى طاعة الله . . وشدوا أيديكم . . واعلموا أنكم راحلون فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وحافظوا على إخلاص النيات، . . واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقرعوا أبواب الرحمة . . وواظبوا على تغيير المنكر . . واشتغلوا بدينكم اشتغالاً يخلصكم . . إلخ»[٢٠٦] وهكذا يستمر الكاتب في أسلوبه الوعظي الخطابي مستخدماً فعل الطلب والأمر في تخاطبه مع طلبة سبتة. ولا تخرج هذه الرسالة عن خطبة دينيّة تلقى على جَمْعٍ من المسلمين، ومثل هذه النماذج تتكرر في كثير من رسائله . . . يقول

في أخرى من أمير المؤمنين إلى الشيوخ والأعيان في قسنطينة «فبادروا ـ وفقكم الله ـ إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير.. وسارعوا بالتوبة.. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة بإتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه.. واستغفروا الله.. وتوبوا إلى الله.. واحذروا ثم احذروا تمادياً على الخطيئات وإصراراً، واحرصوا.. وكونوا... واذكروا... واتعظوا بغيركم فالسعيد من وعظ بغيره»(٢٠٧).

هـ ـ أما رسائل كاتبنا من حيث الطول فهي تتراوح بين القصر البين الذي يقرب من الصفحة الواحدة من القطع المتوسط(٢٠٨) وبين الطول الذي يمتد حتى يشمل صفحات وصفحات مثلما هي في رسالة الفصول التي استغرقت أكثر من ثماني عشرة صفحة من القطع المتوسط(٢٠٩)، والذي يحدد حجم الرسالة موضوعها بالدرجة الأولى وما قد يولده الموضوع نفسه من أفكار واستطرادات، ثم مقدرة منشئها، ثانياً، على التعبير والصول والجول والتلاعب باللغة وهو ما يميل إليه بعض الكتاب الإنشائيين من إسهاب وإطناب. ولكن ابن عطية بشكل عام لم يكن يطيل أو يطنب إلا بالحدود التي يفرضها عليه غرض الرسالة ووظيفتها، وما يتطلبه واقع الحال. ولكن الذي نقرره أن رسائل الموحدين بشكل عام قد بدأت تطول وتسهب قياساً إلى رسائل المرابطين(٢١٠).

منزلة ابن عطية:

من خلال ما تقدم تنتصب قامة ابن عطية الأدبية، وتأخذ مكانها بين كتاب النثر الموحدي، وتستحق بجدارة ما وصفه به الأقدمون من الكتاب والنقاد منهم ابن الخطيب الذي وصفه بعباراته الموجزة حين قال «كان ابن عطية كاتباً بليغاً، سهل المأخذ، منقاد القريحة، سيّال

الطبع»[٢١١] ومن قبل أشاد به ابن عذاري قائلاً: «وذكر الرواة الثقات أنه لم يبلغ مبلغ ابن عطية أحد من الكتاب ولا الوزراء المتقدمين في جده ومجده وكتابته وفصاحته . . . إلخ»[٢١٢]. ومن بعدهما أعجب به الغبريني فجعله بمقام أبي المطرف ابن عميرة في نثره حيث قال «وما رأيت من الكتاب ما أعجبني مثل كُتْب الفقيه أبي المطرف إلا كُتْب أبي جعفر بن عطية، والكُتاب كثير وكَتْبُ هذين الرجلين عندي مقدم على غيرهما»[٢١٣]، وفي عصرنا الحاضر قال فيه محمد بن تاويت وهو بصدد الترجمة له ولأخيه أبي عقيل «إنهما مؤسسا الترسل السلطاني للدولة الموحدية، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد، وهي في أوج عظمتها وشامخ سيادتها»[٢١٤]، أما الأستاذ عبد الله كنون فقد أشاد به وبوأه منزلة تطاول منزلتي ابن زيدون وابن عمار «إذ لا يقصر عن ابن زيدون وابن عمار وأضرابهما من ذوي الوزارتين الذين تقدموه، ولو كتب لآثاره من الخلود ما كتب لآثار الآخرين لرأينا أنه يطأ مواقع أقدامهم ويكاد يزاحمهم بمنكبه» (٢٢٥) ومما تقدم ألا يحق للخليفة عبد المؤمن أن يندم على قتل ابن عطية وأن يبكي عليه بالدموع؟[٢١٦] بعدما امتحن الشعراء بهجوه فما وجد فيهم من يسدّ مسدّه أو يملأ فراغه الكبير الذي خلفه. . ويقرر كلمة حق تعبر عما كان يتبوأه أديبنا من منزلة رفيعة ومكانة سامقة بقوله متحسراً متألماً «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه»[٢١٧].

وعلى كل حال فإن ابن عطية كان أديباً فحلاً وناثراً أصيلاً متمكناً من صناعته ملماً بمقوماتها وعناصرها، متسلحاً بوسائلها وأسبابها، وكان يمكن أن يعطي الشيء الكثير في مجال عمله لولا الدهر الخؤون الذي لم يعطه فرصته، فكسر قلمه وأطفأ نوره وهو لما يزل في شبابه وذروة مجده وعطائه.

هوامش البحـــث

١ ـ انظر : عبد الله كنون : أبو جعفر بن عطية ص ٥ ـ ٦ دار الكتاب اللبناني ، وقد ذكر الأستاذ كنون أن والد أحمد بن عطية قد وردت ترجمة له في الجذوة، ولكننا لم نعثر على الترجمة المذكورة.

٢ ـ لسان الدين بن الخَطيب : ١/٢٦٣ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ مطبعة الخانجي ١٩٧٣ .

٣ ـ ابن الأبار : ٢/٢٣٨، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهـرة ١٩٦٣ .

٤ ـ نفسه، وقد وهم ابن الخطيب فجعل مولده سنة ٥٢٧هـ، الإحاطة ١/٢٧١ .

٥ ـ نفسه ٢/٢٣٨ ، ابن الخطيب: الإحاطة ١/٢٦٣ ، المقري : نفح الطيب ٥/١٨٣ تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨ .

٦ ـ ابن الأبار : الحلة ٢/٢٣٨ .

٧ ـ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٦/٢١٢ (ط . بولاق ١٢٨٤هـ) السـلاوي : الاستقصـا لأخبـار دول المغـرب الأقصى ٢/١٣١ تحقيق الأخوين الناصري، الدار البيضاء ١٩٥٤م .

٨ ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٣ ، العباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ٢/٦١، الرباط ١٩٧٤ .

٩ ـ البيذق : أخبار المهدي بن تومـرت هامش ص ٦٤، نشـر عبد الوهاب بن منصور ـ الرباط ١٩٧١ .
ابن الخطيب : الإحاطة : ١/٢٦٣، المقري : النفح ٥/١٨٣ .

١٠- انظر : ابن خلدون : تاريخه : ٦/٢١٢ ، السلاوي : الاستقصا ٢/١٣١ العباس بن إبراهيم : الأعلام ٢/٦٧ .

١١- ابن الأبار : أعتاب الكتاب ص ٢٢٦ ، تحقيق الدكتور صالح الأشتر دمشق ١٩٦١ .

انظر : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ـ قسم الموحدين ص ٣١ تحقيق محمد الكتاني وآخرين . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٥ ، وفيهما أنه تفرد للكتابة لإسحاق بن علي بن يوسف .

١٢- ابن الأبار : الحلة ٢/١٩٤ .

١٣- البيذق : أخبار المهدي ص ٦٣ وما بعدها . وجاء في رواية أخرى أن مقتل أبي إسحاق إبراهيم كان عام ٥٤٢هـ ، انظر : ابن الأثير : الكامل ٨/٢٩٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢/٤٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/٢٨١ .

١٤- ابن الأبار : أعتاب الكتاب ٢٢٦ ، ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٣ ، ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ٣١ .

١٥- ابن الأبار : أعتاب الكتاب ٢٢٦ .

١٦- المراكشي : البيان المغرب ٣١ .

١٧- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٤ .

١٨- ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ص ٣١ وانظر في الموضوع نفسه المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩٩ ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .

١٩ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٤ .

٢٠ـ أعتاب الكتاب ص ٢٢٥ .

٢١ـ محمد بن تاويت : الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ١/٢٥٢ ، الدار البيضاء ١٩٨٢ .

٢٢ـ انظر المراكشي ، المعجب: ص ١٩٨ .

٢٣ـ ابن الخطيب : الإحاطة : ١/٢٦٤ ، السلاوي/ الاستقصا ٢/١٣١ .

٢٤ـ انظر ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ١٥٧ ـ ١٥٨ تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٨٧ ، ابن الأبار : الحلة ٢/٢٤٢ .

٢٥ـ الحلة ٢/٢٢٥ .

٢٦ـ ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلى المغرب ٢/١٥٦ ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ ، المقري : النفح ٣/٥٠٨ .

٢٧ـ انظر : المصدرين السابقين نفسيهما .

٢٨ـ هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس ، مولى بني أبي العافية ، كان شاعر عبد المؤمن .
انظر : المراكشي : المعجب ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ، وانظر : ترجمته في : محمد بن تاويت : الوافي ج ١/٩١ وما بعدها ، وقال إن ترجمته في التكملة والذيل والتكملة .

٢٩ـ محمد بن تاويت : الوافي ١/١٠٠ .

٣٠ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ١٩٤ ، الرباط ١٩٧٣ .

٣١- ابن عذاري : البيان المغرب ٤٧ .

٣٢- ابن أبي زرع : الأنيس ١٩٥ ، ابن عذاري : البيان المغرب ص ٤٧ - ٥١ ، البيذق : أخبار المهدي ص ٧٨ - ٧٩ .

٣٣- ابن أبي زرع : الأنيس ١٩٣ - ١٩٤ ، ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٥ .

٣٤- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٥ ، ابن عذاري: البيان المغرب ص ٥٦ .

٣٥- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٧١ .

٣٦- ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٣٢ .

٣٧- انظر المراكشي : المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٦ ، المقري : النفح ٥/١٨٤ ، ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٨ ، ٥٩ .

٣٨- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٥ وانظر : البيان المغرب - ص ٥٨ .

٣٩- انظر المراكشي : المعجب ١٩٩ ، وفي الإحاطة ١/٢٦٥ ، ذكر ابن الخطيب أن ابن عطية تزوج بنت يحيى الحمار من أمراء اللمتونيين وكانت أمها زينب بنت علي بن يوسف .

٤٠- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٥ ، وانظر : المقري : النفح ٥/١٨٣ ، ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٧ .

٤١- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٥ .

٤٢- ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٨ .

٤٣- نفسه ، ابن الخطيب : الإحاطة ، ١/٢٦٦ ، المقري : النفح ٥/١٨٤ .

٤٤- ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٩، ابن الأبار : الحلة ٢/٤٢٦، ابن الخطيب: الإحاطة ١/٢٦٦، المقري، النفح ٥/١٨٣.

٤٥- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٦.

٤٦- ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٨، وفي الإحاطة أضاف أن قتلهما كان بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة ١/٢٦٧، وفي الأنيس المطرب ص ١٩٦ لابن أبي زرع جاء أن مقتل ابن عطية كان في شوال سنة ٥٥٢هـ.

٤٧- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٨، النفح ٥/١٨٥، ابن أبي زرع: الأنيس ١٩٦.

٤٨- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٧، المقري : النفح ٥/١٨٤، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ١٩٧ وقد ألحق القصيدة النونية بالرسالة النثرية وجعلهما شيئاً واحداً.

٤٩- ابن عذاري : البيان المغرب : ص ٥٨.

٥٠- المقري : النفح ٥/١٨٦.

٥١- انظر : السلاوي : الاستقصا ٢/١٣١، فقد أشار السلاوي إلى أن والد ابن عطية قد تحول إلى خدمة عبد المؤمن ولما حاصر الخليفة فاساً اعتزم أبو أحمد الفرار فقبض عليه في طريقه وسيق إلى عبد المؤمن فاعتذر فلم يقبل عذره وسحب إلى مصرعه.

٥٢- المراكشي : المعجب ١٩٩.

٥٣- المقري : النفح ٥/١٨٥.

٥٤- المراكشي : المعجب ٢٠١.

٥٥- ابن الأبار : الحلة ٢/٢٣٧

٥٦- البيان المغرب : ص ٥٨ .

٥٧- النفح ٥/١٨٨ .

٥٨- انظر صفحة٢٠ من البحث .

٥٩- المقري : النفح ٥/١٨٦ .

٦٠- انظر : نفسه ٥/١٨٤ .

٦١- انظر الرسالة في ديوان ابن زيدون بتحقيق علي عبد العظيم ص ٦٨٠ وما بعدها، القاهرة ١٩٥٧ .

٦٢- ديوان ابن زيدون ص ٦٨٨، وسوف نعتمد على المصدر نفسه فيما نقتبسه من نصوص من رسالته الجدية .

٦٣- المقري : النفح ٥/١٨٤ وسوف نعتمد المصدر نفسه فيما نقتبسه من رسالة ابن عطية الاستعطافية .

٦٤- عبد الله كنون : أبو جعفر بن عطية، ص ٢٢، أما الأستاذ محمد ابن تاويت فقد رجح أن يكون ابن عطية ينظر إلى الجاحظ في رسالته الجدية التي وجهها إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات، ولكننا نرجح أن يكون تأثير ابن زيدون عليه أكثر - (انظر الوافي ١/٢٥٣ - ٢٥٦) .

٦٥- انظر : ابن أبي زرع : الأنيس ١٩٦ .

٦٦- إ . ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٣٥، ط . رباط الفتح ١٩٤١م .

٦٧- القلقشندي ٦/٤٤٣ (ط . مصر) سنة ١٩١٥ .

٦٨- إ ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٣٧ .

٦٩ـ يقصد بهما : عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي المعصوم . وقد أشار إلى ثورتهما ابن عذاري في البيان المغرب ص ٤٧ ـ ٥١ وانظر السلاوي : الاستقصا ١ / ١٢٤ .

٧٠ـ إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل ص ٤٣ .

٧١ـ انظر نفسه ص ٤٤ ، ٤٥ .

٧٢ـ نفسه ص ٤٦ ، ٤٧ .

٧٣ـ انظر نفسه ص ٥٠ ـ ٥١ .

٧٤ـ نفسه ص ٤٨ ، ويذكر ابن أبي زرع خبر مقتلهما والقضاء على ثورتهما قريباً من رواية البيان المغرب ولكنه يجعل قتلهما في عام ٥٤٩هـ انظر : الأنيس المطرب ص ١٩٥ ، وانظر أيضاً : البيذق : أخبار المهدي ص ٧٨ ـ ٧٩ .

٧٥ـ نفسه ص ٥١

٧٦ـ نفسه ص ٦٩ .

٧٧ـ نفسه ص ٩٦

٧٨ـ نفسه ص ٩٧ .

٧٩ـ نفسه ص ٩٨ .

٨٠ـ ابن صاحب الصلاة ص ٧٠ .

٨١ـ نفسه ص ٧٠ ، وفي المراكشي : المعجب ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ ، البيذق : أخبار المهدي ص ٨٠ ، وذكر المراكشي : أن عبد المؤمن حاصر مدينة المهدية آخر سنة ٥٥٣هـ وقد دام هذا الحصار سبعة أشهر إلا أياماً حتى فتحها ثم بعدها بعث إلى قابس من افتتحها ، ثم بعد ذلك افتتحت مدن وحصون عديدة منها قفصة .

٨٢- تقع قفصة غربي مدينة صفاقس الساحلية، وشمال قابس وجنوب القيروان، انظر هامش المن بالإمامة ص ٧٧.

٨٣- انظر : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٧٧.

٨٤- انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ص ٦٩.

٨٥- انظر : ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٨٤ وما بعدها وقد جاء في كتاب الاستقصا للسلاوي ٢/١٤٠ أن ابتداء البناء في مدينة جبل الفتح بجبل طارق كان في تاريخ ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

٨٦- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة هامش ٨٣، وقد يكون منشئها عبد السلام الكومي لأنه كان أثناء حصار المهدية كاتب الخلافة، كما يذكر البيذق في كتابه : أخبار بن تومرت ص ٨٠.

٨٧- انظر : نفسه هوامش الصفحات ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٩١.

٨٨، ٨٩ ـ مجموع رسائل موحدية ص ١٢٦.

٩٠- نفسه ص ١٢٨.

٩١- ابن القطان ص ١٤٩ بتحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط.

٩٢- نفسه ص ١٥١، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٢٩، وفي البيان المغرب، جاء تاريخها في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ. انظر ص ٣٧ منه.

٩٣- ابن القطان : نظم الجمان ١٦٣.

٩٤- نفسه : هامش ص ١٥١.

٩٥- مجموع رسائل موحدية ص ٦.

٩٦- ابن عذاري ص ٣٧، وانظر ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

٩٧- انظر ابن عذاري : البيان المغرب ص ٩٤، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٢٩ .

٩٨- انظر صفحة ١٥ من البحث.

٩٩- انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ص ٦٠ ، حيث ذكر جزءاً يسيراً من الرسالة ، ابن أبي زرع : الأنيس ص ١٩٦ .
ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٧، المقري : النفح ٥/١٨٤، السلاوي : الاستقصا ٢/١٣٢ - ١٣٣ .

١٠٠- انظر: ابن الأبار: أعتاب الكتاب ٢٢٧ - ٢٢٩ . ابن الخطيب: الإحاطة ١/٢٦٨، المقري : النفح ٥/١٨٧، السلاوي : الاستقصا ٢/١١٠ - ١١٢ .

١٠١- انظر : د. مصطفى السيوفي : ملامح التجديد في النثر الأندلسي ص ١٨٨، ط . عالم الكتب - بيروت ١٩٨٥ .

١٠٢- انظر بحثنا عن المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد الموحدين ص ٦ وما بعدها، الذي سينشر في مجلة المورد العراقية.

١٠٣- يستثنى من ذلك رسالته الماسية حيث جاءت مبتدئة بقوله : كتابنا هذا من وادي ماسة، بعدما تجدد . إلخ» فجاء ذكر المكان فقط دون الزمان ودون ذكر اسم المرسل منه والمرسل إليه .

١٠٤- جاءت البعدية في عموم رسائله بلفظ «أما بعد» سوى الرسالة السابعة حيث وردت بلفظ «وبعد حمد الله» انظر مجموع رسائل موحدية ص ١٧ .

١٠٥- انظر الرسالة في : ابن القطان ص ١٥٠ وما بعدها.

١٠٦- نفسه.

١٠٧ـ القلقشندي ٦/٤٤٣ (ط . مصر).

١٠٨ ـ إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ٣.

١٠٩ـ انظر مثلاً: رسالته الأولى ص ١ ورسالته الثانية ص ٣.

١١٠ـ انظر مثلاً : نفسه : رسالته الرابعة ص ٦، رسالته السادسة ص ١٣.

١١١ـ انظر مثلاً مراسلات ابن الجد عن أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين، ابن خاقان : قلائد العقيان ١/٣٤٤، ٣٣٣. بتحقيق الدكتور حسين يوسف خريوش، الأردن ١٩٨٩.

١١٢ ، ١١٣ ـ نفسه .

١١٤ـ المراكشي : ص ٢٦٤.

١١٥ـ قتل ابن عطية عام ٥٥٣هـ أما ابن عياش فقد توفي سنة ٦١٩ هـ، وكانت خدمته الديوانية لأول مرة عند الخليفة أبي يوسف يعقوب الذي حكم للفترة (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ)، انظر المعجب ٢٦١، ٢٦٣.

١١٦ـ انظر : يوسف عروج : النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس ص ٢٦٠، رسالة ماجستير ـ على الآلة الكاتبة ـ مقدمة إلى جامعة دمشق ١٩٨٣، وفي الجامعة الأردنية نسخة عنها.

١١٧ـ انظر بحثنا: المكاتبات الرسمية الأندلسية «النموذج الخامس من رسوم الصنف الأول».

١١٨ـ محمد بن تاويت : الوافي ١/٢٥٢.

١١٩، ١٢٠ ـ د. السعيد : المكاتبات الرسمية الأندلسية ، الجانب الفني.

١٢١ـ محمد بن تاويت : الوافي ١/٢٥٦ .

١٢٢ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٣ .

١٢٣ـ السلاوي : الاستقصا : ٢/١٣١ .

١٢٤ـ إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٣٣ .

١٢٥ـ نفسه ٣٨ وما بعدها .

١٢٦ـ نفسه ص ٤٧ .

١٢٧ـ البيان المغرب : ٣٧ .

١٢٨ـ الاستبراء هو التريث على المرأة حتى تحيض ويتأكد عدم حملها، نظم الجمان، هامش ص ١٦٠ .

١٢٩ـ الرُّب ـ كما في لسان العرب : الطبخ الخاثر من عصير العنب، وقال الدكتور التازي إن اسم الرب معروف لحد الآن في إسبانيا ويطلق على نوع من المتناولات ARROPE ، وقد كان شربه معهوداً لدفع شدة البرد والثلج ، لكن الموحدين انتبهوا إلى أنه مسكر فأصدروا الأمر بمنعه وذلك سنة ٥٨٠هـ (انظر : المن بالإمامة، هامش ص ١١٣ ـ ١١٤ ، وانظر مجموع رسائل موحدية الرسالة ٢٨ صفحة ١٦٤ ، الاستقصا ٢/١٨٨) .

١٣٠ـ ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٢ .

١٣١ـ نفسه ١٦٤ .

١٣٢ـ انظر : رسالة الفصول : نظم الجمان ص ١٥١ ، وانظر هامش الصفحة نفسها ، والرسالة الثالثة من مجموع رسائل موحدية ص ٥ .

١٣٣ـ إ. ليفي بروفنسال : ص ٨ .

١٣٤ـ نفسه ص ٢١ .

١٣٥ـ نفسه ص ٤٥ .

١٣٦ـ انظر : نفسه ص ٥٧ .

١٣٧ـ نفسه ص ٥٩ .

١٣٨ـ انظر : نفسه ص ٦٢ .

١٣٩ـ نفسه ص ٦٣ .

١٤٠ـ نفسه ص ٦٤ .

١٤١ـ نفسه ص ٦٥ .

١٤٢ـ د. السعيد : المكاتبات الرسمية الأندلسية ـ مصدر سابق ـ ص ١٩ .

١٤٣ـ نظم الجمان ص ١٥٣ ، والآية الأولى من سورة النساء رقم ١١١ ، والآية الثانية من سورة الشعراء رقم ٢١٥ .

١٤٤ـ نفسه ص ١٥٣ والحديث الشريف في صحيح البخاري / كتاب الجنائز ٢ / ٧٩ ، وانظر تخريج الحديث هامش صفحة ١٥٣ من كتاب نظم الجمان .

١٤٥ـ نفسه ص ١٥٤ ، الآية من سورة البقرة ، رقم ٩ .

١٤٦ـ نفسه ص ١٥٤، والحديث الشريف ـ كما ورد في هامش الصفحة عن محقق كتاب نظم الجمان ـ وارد عند الإمام ابن حنبل في مسنده وخرّجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد استند المحقق إلى كتاب عبد الرؤوف المناوي: فيض القدير في شرح الجامع الصغير ٦/١٩٢ ـ ١٩٣.

١٤٧ـ نفسه ص ١٦١، والحديث الأول «الحلال بيّن والحرام بيّن» أورده البخاري في صحيحه ١/٢٠، ومسلم ٥/٥٠، وابن ماجة ٢/٤٧٦ ـ ٤٧٧.

انظر هامش الصفحة نفسها.

أما الحديث الثاني: ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام، فقد قال محقق نظم الجمان إن الذي جاء في كتب الصحاح «ما أسكر كثيره فقليله حرام» انظر «فيض القدير» للمناوي ٥/٤٢٠، وسنن ابن ماجه ٢/٣٣٢ وسنن النسائي ٨/٣٠٠ ـ ٣٠١، وسنن أبي داود ٢/١٣٠، راجع بصدد ذلك هامش الصفحة نفسها من نظم الجمان.

١٤٨ـ مجموع رسائل ص ٣.

١٤٩ـ الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

١٥٠ـ إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ٥٣.

١٥١ـ آية رقم ١٩ من سورة الحشر.

١٥٢ـ مجموع رسائل موحدية ص ٤١.

١٥٣ـ آية رقم ٤.

١٥٤ـ مجموع رسائل موحدية ص ٦٩.

١٥٥ـ سورة يوسف رقم الآية ٥١ .

١٥٦ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٩ .

١٥٧ـ سورة آل عمران آية رقم ١٧٨ .

١٥٨ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٦٩ .

١٥٩ـ سورة الأنبياء آية رقم ٩٦ .

١٦٠ـ انظر : محمد بن تاويت : الوافي ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

١٦١ـ مجموع رسائل موحدية ص ٦٣ .

١٦٢ـ ورد الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/١٩٥، وقال إن هذا الحديث قد أخرجه البخاري ٨ كتاب الصلاة ـ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره .

١٦٣ـ ابن القطان : نظم الجمان ١٦٣ .

١٦٤ـ نفسه، هامش ص ١٦١ .

١٦٥ـ نفسه ص ١٦٦ .

١٦٦ـ انظر نفسه هامش ص ١٦٦ .

١٦٧ـ إ. ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ٣٠.

١٦٨ـ الميداني : مجمع الأمثال ١/١٦١ فيما أوله جيم بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

١٦٩ـ مجموع رسائل موحدية ص ٥٢ .

١٧٠ـ ابن الخطيب : الإحاطة ١ / ٢٦٩ .

١٧١ـ انظر: محمد بن تاويت: الوافي ١ / ٢٥٩ ، وقد ذكر أن «عقد الكرب» هو الحبل الموصول بالرشاء، الملوي على خُشيّبات الدلو المعروفة .

١٧٢ـ الإحاطة ١ / ٢٧٠ .

١٧٣ـ انظر : ابن تاويت : الوافي بالأدب ١ / ٢٥٩ .

١٧٤ـ الإحاطة ١ / ٢٦٩ .

١٧٥ـ التجيبي : زاد المسافر ١١٣ ، المقري : النفح ٣/٤٤٨ ، وروي البيت في المعجب لابن البني (أبو جعفر أحمد بن محمد) ص ١٧١ .

١٧٦ـ إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٢١ ، وانظر ابن القطان نظم الجمان ص ١٥٧ حيث أورد مجموعة من السجعات الثنائية .

١٧٧ـ نفسه ص ٣٢ .

١٧٨ . نفسه ص ٢٧ .

١٧٩ـ انظر مثله ص ١٤ من الكتاب نفسه حيث بنى الفقرة على حرف الحاء ثم أورد أثناءها تقفيات أخرى .

١٨٠ـ نفسه ص ١ .

١٨١ . نفسه ص ٤ .

١٨٢ـ الكلاعي : أحكام صنعة الكلام ص ٢٤٠ ، بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٦ .

١٨٣- إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ١٩٠، وانظر منه ص ١٦ .

١٨٤- د. مصطفى السيوفي : ملامح التجديد ص ٥٧٦ .

١٨٥- إ. لافي بروفنسال مجموع رسائل موحدية، ص ٤٨ .

١٨٦- نفسه ص ١٢ .

١٨٧- نفسه ص ١٤ .

١٨٨- نفسه ص ٦٥، وانظر ص ١٤ .

١٨٩- نفسه ص ١١ .

١٩٠- نفسه ص ١٥ .

١٩١- نفسه ص ٦٨ .

١٩٢- نفسه ص ٦٩ .

١٩٣- نفسه ص ٩ .

١٩٤- نفسه ص ٥٤ .

١٩٥- نفسه ص ٤ .

١٩٦- ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٣ .

١٩٧- إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٢٩ .

١٩٨- محمد بن تاويت : الوافي ١/٢٥٧ .

١٩٩- ابن الخطيب : الإحاطة ١/٢٧٠ .

٢٠٠- إ. ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ٣٣ .

٢٠١- نفسه ص ٤٢ .

٢٠٢ ، ٢٠٣ ـ نفسه ص ١ .

٢٠٤ـ نفسه ص ١٤ .

٢٠٥ـ نفسه ص ٤٤ .

٢٠٦ـ نفسه ص ٢ ـ ٣ .

٢٠٧ـ نفسه ص ١٨ ـ ١٩ .

٢٠٨ـ انظر الرسالة الثانية في كتاب : مجموع رسائل موحدية ص ٣ ـ ٤ .

٢٠٩ـ انظر رسالة الفصول في كتاب : نظم الجمان ١٥٠ ـ ١٦٧ .

٢١٠ـ انظر : ابن شريفة : أو المطرف ص ١٨١ ، والدكتور السعيد المكاتبات الرسمية الأندلسية ـ مصدر سابق ص ٣٠ .

٢١١ـ الإحاطة ١/٢٦٣ .

٢١٢ـ البيان المغرب ص ٥٨ .

٢١٣ـ عنوان الدراية ، ص ٢٩٩ تحقيق عادل نويهض ، بيروت ١٩٦٩ .

٢١٤ـ الوافي ١/٢٥١ .

٢١٥ـ أبو جعفر بن عطية ص ١٣ .

٢١٦ـ انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ص ٥٨ .

٢١٧ـ المقري : النفح ٥/١٨٦ .

قائمة المصادر والمراجع

١ - ابن الأبّـار : أبو عبـد الله محمد بن عبـد الله بن عبد الـرحمن القضاعي (ت ٦٥٨هـ).

أ - أعتاب الكتاب : تحقيق الدكتور صالح الأشتر طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١.

ب - الحلة السيراء : تحقيق الدكتور حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٣ (الجزء الثاني).

٢ - ابن أبي زرع : أبـو الحسن علي بن عبـد الله الفـاسي (ت ٧٢٦هـ):

الأنيس المطرب / مطبعة دار المنصور - الرباط ١٩٧٣.

٣ - ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) الكامل : تحقيق عبد الوهاب النجار ، مصر، المطبعة المنيرية ١٣٥٣هـ.

٤ - ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف الأتابكي (ت٨٠٨هـ). النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقـاهرة - مـطبعـة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٥.

٥ - ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله) (ت ٥٢٩هـ) قلائد العقيان، بتحقيق الدكتـور حسين يوسف خـريوش ، ط. مكتبة المنار - الأردن ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦ ـ ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني (ت ٧٧٦هـ) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة الخانجي ـ القاهرة ١٩٧٣ .

٧ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو تاريخ ابن خلدون ط. بولاق ١٢٨٤هـ.

٨ ـ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨م .

٩ ـ ابن زيدون : أبو الوليد أحمد (ت ٤٦٣هـ)
ديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبد العظيم، القاهرة مطبعة نهضة مصر ١٩٥٧م .

١٠ـ ابن سعيد الأندلسي : أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) المغرب في حلي المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة ١٩٥٥ .

١١ـ ابن شريفة/ دكتور محمد
أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط ١٩٦٦ .

١٢ـ ابن صاحب الصلاة : عبد الملك : المن بالإمامة : تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي بيروت ـ لبنان ١٩٨٧ .

١٣- ابن عذاري المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد (كان موجوداً سنة ٧٠٦هـ) : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، قسم الموحدين - تحقيق الأساتذة (محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة) دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥ - ١٤٠٦هـ.

١٤- ابن القطان : نظم الجمان (جزء منه) تحقيق الدكتور محمود علي مكي - الرباط.

١٥- إليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمنية، المطبعة الاقتصادية - الرباط ١٩٤١.

١٦- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، نشر عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط ١٩٧١.

١٧- التجيبي : أو بحر صفوان بن إدريس المرسي (ت ٥٩٨ هـ) زاد المسافر، تحقيق عبد القادر محداد بيروت ١٩٧٠م.

١٨- السعيد : دكتور محمد مجيد : المكاتبات الرسمية الأندلسية في عهد الموحدين، بحث معدّ للنشر في مجلة المورد العراقية.

١٩- السلاوي الناصري : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤م.

٢٠- السيوفي : دكتور مصطفى محمد أحمد علي
ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري ط . عالم الكتب - بيروت ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ.

٢١ـ العباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام المطبعة الملكية ـ الرباط ١٩٧٤م .

٢٢ـ عبد الباقي أحمد فؤاد
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٩٨٦ .

٢٣ـ عبد الله كنون : أبو جعفر بن عطية، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب (٥) مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ـ بيروت .

٢٤ـ الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت ٧١٤هـ) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ١٩٦٩ .

٢٥ـ القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى في صناعة الإنشا / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧، واعتمدت كذلك على ط. مصر ١٩١٥م .

٢٦ـ الكلاعي : أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي : أحكام صنعة الكلام، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٦ .

٢٧ـ محمد بن تاويت :
الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة ـ الدار البيضاء ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ .

٢٨- المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب / تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٩م - ١٣٦٨هـ.

٢٩- المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)
نفح الطيب : تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار صادر ١٩٦٨م.

٣٠- الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨هـ)
مجمع الأمثال ١ - ٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم - بيروت / لبنان.

٣١- يوسف عروج :
النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس
رسالة ماجستير - على الآلة الكاتبة - مقدمة إلى جامعة دمشق ١٩٨٣.